موبي ديك

السنابل

المغامرات المثيرة

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

© الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ١٩٩٢

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي – الجيزة ، مصر

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٥٦٠٠ / ١٩٩٢

الترقيم الدولي : ٢ – ٠٠٩٨ – ١٦ – ٩٧٧ ISBN

طبع في دار توبار للطباعة

موبي ديك

المغامرات المثيرة

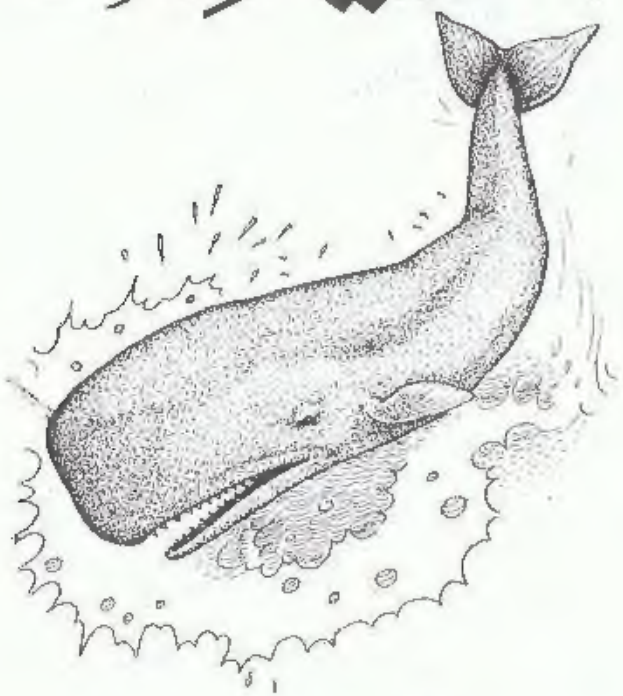

تأليف : هرمان ملفيل

أعدها بالعربية : علي عبد الهادي منيب

رسوم : ممدوح الفرماوي

مكتبة لبنان

الفصل الأول

الفُنْدُقُ الصَّغير

اسْمي إسماعيل ، وَسَأَقُصُّ عَلَيْكُمْ قِصَّةً عَنْ إحْدى الرِّحْلاتِ البَحْرِيَّةِ الَّتي قُمْتُ بِها مُنْذُ بِضْعَةِ أعْوامٍ .

كانَ مِنْ عادَتي أنْ أبْحَثَ عَنْ سَفينَةٍ لأبْحِرَ فيها عِنْدَما لا أجِدُ مَعي نُقوداً ، وَأشْعُرُ بِالحاجَةِ إلى تَغْيير . إنَّني لا أبْحِرُ في إحْدى السُّفُنِ الضَّخْمَةِ الفاخِرَةِ ، الَّتي يَسْتَقِلُّها الأغْنِياءُ وَيَتَناوَلونَ فيها أشْهى المأكولاتِ وَأطْيَبَ المَشْروباتِ ، لأنَّني لا أمْلِكُ مالاً كافِياً يَسْمَحُ لي بِذَلِكَ . وَلا أبْحِرُ كَذَلِكَ في أيِّ سَفينَةٍ لأعْمَلَ فيها طَبَّاخاً أوْ عامِلاً مِنْ عُمّالِ النَّظافَةِ ، وَلَكِنَّني دائِماً أحْرِصُ عَلى أنْ أبْحِرَ في السَّفينَةِ كَبَحّارٍ بَسيطٍ .

في أوَّلِ الأمْرِ ، كانَ لا يَروقُ لي أنْ أتَلَقّى أوامِرَ مِنْ أحَدٍ ، لأنَّ ذَلِكَ لا يَتَناسَبُ مُطْلَقاً مَعَ حَياتي العادِيَّةِ ، حَيْثُ اعْتَدْتُ إصْدارَ

الأوامِرِ لِلآخَرينَ . وَلَكِنَّني – في وَقْتٍ وَجيزٍ – تَعَوَّدْتُ هَذا التَّغْييرَ . فَعِنْدَما يَأمُرُني الرُّبّانُ بِتَنْظيفِ سَطْحِ السَّفينَةِ فَلَيْسَ لي إلّا أنْ أطيعَ هَذا الأمْرَ ، لأنَّني أعْرِفُ تَماماً أنَّهُ عَلى صَوابٍ ، إنَّهُمْ يَدْفَعونَ لي أجْراً عَلى عَمَلي بِالسَّفينَةِ ، وَإنَّني أعْمَلُ لأتَقاضى هَذا الأجْرَ ، فَضْلاً عَنْ أنَّني أنْعَمُ خِلالَ أدائي لِهَذا العَمَلِ بِهَواءِ البَحْرِ النَّقِيِّ ، وَأسْتَمْتِعُ بِالرِّياحِ الطَّبيعِيَّةِ الَّتي تَهُبُّ عَلَيْهِ .

في هَذِهِ المَرَّةِ – وَبَعْدَ تَفْكيرٍ عَميقٍ – قَرَّرْتُ أنْ أُبْحِرَ عَلى سَفينَةٍ لِصَيْدِ الحيتانِ .

هُناكَ سُفُنٌ عَديدَةٌ تَقومُ بِصَيْدِ الحيتانِ في المُحيطِ ؛ لِلْحُصولِ عَلى ما يَحْتَوي عَلَيْهِ جَسَدُ الحوتِ مِنْ زَيْتٍ ثَمينٍ ذي قيمَةٍ كَبيرَةٍ . وَتُعْتَبَرُ جَزيرَةُ نانْتوكِت – الَّتي تَقَعُ عِنْدَ السّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لأمْريكا الجَنوبِيَّةِ – أفْضَلَ الأماكِنِ لِوُجودِ هَذِهِ السُّفُنِ . لِذَلِكَ اقْتَضى الأمْرُ أنْ أذْهَبَ إلى هَذِهِ الجَزيرَةِ ، عَنْ طَريقِ القارِبِ الَّذي يُبْحِرُ إلَيْها مِنْ مَدينَةِ نيوبدفُورد ، الَّتي وَصَلْتُ إلَيْها لَيْلَةَ يَوْمٍ مِنْ أيّامِ السَّبْتِ ، وَلَكِنَّني لَمْ أَلْحَقْ بِالقارِبِ الَّذي كانَ قَدْ غادَرَها مِنْ قَبْلُ ، قاصِداً جَزيرَةَ نانْتوكِت ، وَباتَ مِنَ المُحَتَّمِ عَلَيَّ البَقاءُ في نيوبدْفُورد لِلَيْلَةٍ أخْرى أوْ أكْثَرَ .

وَقَفْتُ في وَسَطِ أَحَدِ شَوارِعِ المَدينَةِ الَّتي لا ضَوْءَ فيها ، وَاللَّيْلُ يُرْخي سُدولَهُ ، وَقَدْ تَملَّكَتْني الحَيْرَةُ ؛ فَأَيْنَ أَقْضي تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَلَيْسَ مَعي مِنَ النُّقودِ إلّا القَليلُ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « إسماعيل ، عَلَيْكَ أَنْ تَسْعى إلى المَبيتِ في حُجْرَةٍ ، بِشَرْطِ ألا يَكونَ أَجْرُها كَبيراً .»

قادَتْني قَدَماي نَحْوَ شاطِئِ البَحْرِ حَيْثُ شاهَدْتُ فُنْدُقًا صَغيراً ، يَنْبَعِثُ مِنْ داخِلِهِ نُورٌ خافِتٌ ، وَيَصِلُ إلى أُذُنَيَّ أَصْواتُ نُزَلائِهِ . وَعِنْدَما فَتَحْتُ البابَ وَقَعَ نَظَري عَلى مِنْضَدَةٍ طَويلَةٍ مُنْحَنِيَةِ انْحِناءَ القَوْسِ ، يَقِفُ خَلْفَها رَجُلٌ يَبيعُ المَشْروباتِ إلى بَعْضِ البَحّارَةِ .

وَكانَ المُتَعامِلونَ مَعَهُ يُطْلِقونَ عَلَيْهِ اسْمَ « يونان » لأَنَّ شَكْلَ هَذِهِ المِنْضَدَةِ يُشْبِهُ العِظامَ السُّفْلى لِفَكِّ الحُوتِ ، وَفي الإنْجيلِ قِصَّةٌ تَحْكي أَنَّ أَحَدَ الحيتانِ قَدِ ابْتَلَعَ قَديساً يُدْعى يونان .

قَصَدْتُ صاحِبَ الفُنْدُقِ سائِلاً إيّاهُ : « هَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَجِدَ غُرْفَةً أَقْضي فيها اللَّيْلَةَ ؟»

أَجابَ : « لا . الفُنْدُقُ كُلُّهُ مَشْغولٌ ، وَلا يوجَدُ بِهِ غُرْفَةٌ واحِدَةٌ خالِيَةٌ .» ثُمَّ اسْتَطْرَدَ مُسْتَفْسِراً بَعْدَ تَفْكيرٍ : « هَلْ تُشارِكُ أَحَدَ النُّزَلاءِ فِراشَهُ ؟»

سَأَلْتُ عَلى الفَوْرِ : « مَعَ مَنْ ؟»

رَدَّ قائِلاً : « مَعَ أَحَدِ صَيّادي الحيتانِ . هَلْ تَوَدُّ مُشارَكَتَهُ في غُرْفَتِهِ ؟»

هُنا قَدْ يَكونُ مِنَ المُلائِمِ أَنْ أَذْكُرَ شَيْئًا عَنْ عَمَلِ هَؤلاءِ الصَّيّادينَ ؛ إنَّهُمْ يَسْتَخْدِمونَ نَوْعًا مِنَ الحِرابِ ذاتِ أَطْرافٍ حادَّةٍ مُنْحَنِيَةٍ إلى الخَلْفِ ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الصَّيّادَ عِنْدَما يَرْشُقُ إحْداها في جَسَدِ الحوتِ لا يُمْكِنُ نَزْعُها . وَالحَرْبَةُ مَرْبوطَةٌ بِحَبْلٍ تَجْعَلُ الحوتَ – بَعْدَ إصابَتِهِ بِها – يَسْبَحُ بَعيداً جاذِبًا قارِبَ الصَّيْدِ خَلْفَهُ بِهَذا الحَبْلِ .

وَيَعْني هَذا أَنَّ صَيّادي الحيتانِ يَتَميَّزونَ بِالقُوَّةِ وَالخُشونَةِ . وَلِذَلِكَ قُلْتُ لِصاحِبِ الفُنْدُقِ ، عِنْدَما سَأَلَني عَنْ مُشارَكَةِ أَحَدِهِمْ في غُرْفَةِ نَوْمِهِ : « إنَّ الأَمْرَ يَتَوَقَّفُ عَلى الصَّيّادِ نَفْسِهِ . وَلَكِنَّني مِنَ المُحْتَمَلِ ألا أَوَدَّ مُشارَكَةَ أَحَدِ هَؤلاءِ الصَّيّادينَ في حُجْرَتِهِ .»

وَجاءَ رَدُّ صاحِبِ الفُنْدُقِ : « هَذا هُوَ المَوْقِفُ ، وَلَيْسَ لَدَيَّ حَلٌّ آخَرُ عَلى الإطْلاقِ .»

وَبَعْدَ أَنْ فَكَّرْتُ مَلِيًّا في قَضاءِ لَيْلَةٍ باردَةٍ عاصِفَةٍ خارِجَ الفُنْدُقِ ، قُلْتُ مُضْطَرًّا : « لا مَناصَ مِنْ مُشارَكَةِ أَيِّ شَخْصٍ فِراشَهُ

حَتَّى وَلَوْ كانَ مِنْ هَذا النَّوْعِ مِنَ الصيَّادينَ .»

قالَ صاحِبُ الفُنْدُقِ : « إنَّني أعْتَقِدُ ذَلِكَ أيْضاً . اسْتَرِحْ قَليلاً . يَبْدو أنَّكَ في حاجَةٍ إلى تَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ . سَيَكونُ مُعَدًّا لَكَ في الحالِ .»

وَفي غُرْفَةٍ أخْرى لا تَدْفِئَةَ فيها قَدَّمَ صاحِبُ الفُنْدُقِ الطَّعامَ لي وَلِبَعْضِ النُّزَلاءِ الآخَرينَ ، حَيْثُ قالَ أحَدُهُمْ : « الجَوُّ هُنا قارِسُ البَرْدِ كَما لَوْ كُنَّا في جَزيرَةٍ أيسْلَنْدا .»

رَدَّ عَلَيْهِ صاحِبُ الفُنْدُقِ قائِلاً : « مَعْذِرَةً ! لَيْسَ مَعي مِنَ النُّقودِ ما يُتيحُ لي أنْ أشْعِلَ نَاراً في مِدْفَأةِ الغُرْفَةِ .»

أمْسَكْتُ فِنْجانَ الشَّايِ السَّاخِنِ بَيْنَ يَدَيَّ طَلَباً لِلتَّدْفِئَةِ ، وَأمامَنا عَلى المائِدَةِ طَعامٌ ، يَتَكَوَّنُ مِنْ بَطاطِسَ وَعَصيدَةٍ مَغْلِيَّةٍ مُكَوَّنَةٍ مِنْ دَقيقٍ وَسَمْنٍ وَسُكَّرٍ . وَبَدَأ أحَدُنا – وَهُوَ شابٌّ يَرْتَدي مِعْطَفاً أخْضَرَ اللَّوْنِ – في تَناوُلِ الطَّعامِ في لَهْفَةٍ ، قائِلاً : « إنَّني أشْعُرُ بِجوعٍ شَديدٍ .»

قالَ لَهُ صاحِبُ الفُنْدُقِ : « يا بُنَيَّ ، إنَّكَ إذا تَناوَلْتَ الطَّعامَ بِهَذِهِ الشَّراهَةِ فَسَتُشاهِدُ أحْلاماً مُزْعِجَةً في نَوْمِكَ .»

عِنْدَئِذٍ هَمَسْتُ سائِلاً صاحِبَ الفُنْدُقِ : « أ لَيْسَ هَذا الشَّابُّ هُوَ

صَيَّادَ الحيتانِ الَّذي سَأشارِكُهُ حُجْرَتَهُ ؟»

« لا ، فَهَذا يَبْدو صورَةً ضَئيلَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ . فَالصَّيَّادُ رَجُلٌ أسْوَدُ البَشَرَةِ ، لا يَتَناوَلُ مِثْلَ هَذِهِ الحَلْوَياتِ مِنَ الأطْعِمَةِ أبَداً ، بَلْ يَأكُلُ اللُّحومَ الحَمْراءَ فَقَطْ .»

« وَأيْنَ هَذا الصَّيَّادُ ؟ هَلْ هُوَ مَوْجودٌ هُنا ؟»

أجابَ صاحِبُ الفُنْدُقِ : « سَيَحْضُرُ عَلى الفَوْرِ .»

لَمْ أشْعُرْ بِالارْتِياحِ بِصَدَدِ مُشارَكَتي لِشَخْصٍ آخَرَ في غُرْفَتِهِ ، وَخَطَرَ بِبالي أنْ أنْتَظِرَ حَتَّى يَأوِيَ ذَلِكَ الصَّيَّادُ إلى فِراشِهِ أوَّلاً . وَهَكَذا قَضَيْتُ المَساءَ مُصْغِياً إلى البَحَّارَةِ ، الَّذينَ وَصَلَتْ سُفُنُهُمْ تَوًّا إلى المينا ، وَهُمْ يَتَحَدَّثونَ عَنْ رِحْلاتِهِمْ وَآخِرِ الأخْبارِ لَدَيْهِمْ ، عَلى حينِ ظَلَّ يونان مَشْغولاً بِتَقْديمِ المَشْروباتِ ، وَالضَّوْضاءُ وَالصَّخَبُ في المَكانِ يَزْدادانِ بِالتَّدْريجِ .

وَفي السَّاعَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ جاءَ صاحِبُ الفُنْدُقِ وَقالَ لي : « لَنْ تَرى الصَّيَّادَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، وَلا داعِيَ لِلانْتِظارِ . سَأحْضِرُ مِصْباحاً وَأرْشِدُكَ إلى غُرْفَتِكَ .»

وَصَعِدْنا مَعاً إلى حُجْرَةٍ صَغيرَةٍ بارِدَةٍ ، بِها سَريرٌ كَبيرٌ جِدًّا يَكْفي لِنَوْمِ أرْبَعَةِ رِجالٍ .

وَقالَ صاحِبُ الفُنْدُقِ : « خُذْ راحَتَكَ في هَذِهِ الحُجْرَةِ ، وَأَتَمَنَّى لَكَ لَيْلَةً طَيِّبَةً .»

وَتَرَكَ المِصْباحَ ثُمَّ غادَرَ المكانَ .

الفصل الثاني

صَيّادُ الحِيتان

خَلَعْتُ مَلابِسي عَلى الفَوْرِ رَغْمَ شُعوري بِالبَرْدِ الشَّديدِ ، وَقَفَزْتُ إلى الفِراشِ ، الَّذي اكْتَشَفْتُ صَلابَتَهُ وَخُشونَتَهُ وَكَأَنَّهُ مَحْشُوٌّ بِقِطَعٍ مِنَ الحِجارَةِ ، جَعَلَتْني لا أَسْتَطيعُ النَّوْمَ لِفَتْرَةٍ مِنَ الوَقْتِ ، وَلَكِنَّني اسْتَغْرَقْتُ في النَّوْمِ بَعْدَها مِنْ فَرْطِ الإعْياءِ .

وَلَمْ تَكَدْ تَمْضي بِضْعُ ساعاتٍ حَتَّى أَيْقَظَني فَجْأَةً وَقْعُ أَقْدامٍ ثَقيلَةٍ ، وَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ لأرى شَخْصاً غَريباً يَدْخُلُ الحُجْرَةَ . لَمْ يَلْتَفِتْ نَحْوَ السَّريرِ ، فَاحْتَفَظْتُ بِهُدوئي لأَنَّني لَمْ أُشاهِدْ وَجْهَهُ في أَوَّلِ الأَمْرِ ؛ وَلَكِنَّهُ عِنْدَما اسْتَدارَ نَحْوَ ضَوْءِ المِصْباحِ دَعَوْتُ اللّهَ في نَفْسي أَنْ يُنْقِذَني مِنْهُ !

يا لَهُ مِنْ وَجْهٍ مُخيفٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ !

إنَّهُ وَجْهٌ أسْوَدُ أرْجُوانِيُّ اللَّوْنِ ، تَعْلوهُ ضِمادات صَفْراءُ وَسَوْداءُ هُنا وَهُناكَ .

نَعَمْ – كَما تَوَقَّعْتَ بِالضَّبْطِ – إنَّهُ شَخْصٌ فَظيعٌ لا أطيقُ مُشارَكَتَهُ في غُرْفَةِ نَوْمٍ واحِدَةٍ . وَيَبْدو أنَّهُ اشْتَرَكَ في مُشاجَرَةٍ ؛ حَيْثُ وَضَعَ أحَدُ الأطِبَّاءِ – عَلى إثْرِها – تِلْكَ الضِّمادات عَلى وَجْهِهِ عِلاجًا لِما أصابَهُ مِنْ رُضوضٍ وَجُروحٍ .

وَتَبَيَّنَ لي كَذَلِكَ أنَّ عَلاماتِ « الوَشْمِ » المَرْسومَةَ عَلى وَجْهِهِ تَبْدو كَأنَّها بُقَعٌ مَصْبوغَةٌ . فَتَذَكَّرْتُ حِينَئِذٍ قِصَّةَ بَعْضِ البَحَّارَةِ ، الَّذينَ وَقَعوا أسْرى في قَبْضَةِ رِجالٍ مُتَوَحِّشينَ ، مَنْقوشٍ عَلى وُجوهِهِمْ وَأجْسامِهِمْ مِثْلُ تِلْكَ العَلاماتِ . وَتَخَيَّلْتُ أنَّ رُسومَ الوَشْمِ عَلى وَجْهِ هَذا الرَّجُلِ مَنْقوشَةٌ بِنَفْسِ هَذِهِ الطَّريقَةِ .

قُلْتُ لِنَفْسي وَأنا أشْعُرُ بِالأسَفِ مِنْ أجْلِهِ : « وَلَكِنَّ هَذا كُلَّهُ لا يَعْدو أنْ يَكونَ مَظْهَرَهُ الخارِجِيَّ فَحَسْبُ ، وَلا يُنْبِئُ لَوْنُ البَشَرَةِ عَنْ مَعْدِنِ الإنْسانِ . وَمِنَ المُمْكِنِ أنْ يَكونَ الإنْسانُ أمينًا مُخْلِصًا مَهْما كانَ لَوْنُ بَشَرَتِهِ .

ظَلَّ هَذا الرَّجُلُ الغَريبُ غَيْرَ مُهْتَمٍّ بِالنَّظَرِ إلى الفِراشِ ، الأمْرُ

الَّذي أعانَني عَلى مُراقَبَتِهِ وَهُوَ يَخْلَعُ قُبَّعَتَهُ ، فَكَشَفَ عَنْ رَأسٍ أصْلَعَ لا شَعْرَ فيهِ ، اللَّهُمَّ إلا خُصْلَةً صَغيرَةً مَعْقودَةً عَلى قِمَّتِهِ . وَلَمْ يَمْنَعْني مِنَ الهُروبِ خارِجَ الحُجْرَةِ إلا وُقوفُهُ حائِلاً بَيْني وَبَيْنَ البابِ .

مَكَثْتُ راقِدًا في مَضْجَعي أرْتَعِدُ مِنَ الخَوْفِ ، حَريصًا عَلى مُلاحَقَةِ تَحَرُّكاتِهِ . فَأخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ تِمْثالاً صَغيرًا مِنَ الخَشَبِ وَ وَضَعَهُ في مَكانِ المِدْفَأةِ ، وَأخَذَ يَرُصُّ أمامَهُ بَعْضًا مِنَ القِطَعِ الخَشَبِيَّةِ الصَّغيرَةِ ، وَ وَضَعَ عَلَيْها قِطْعَةً مِنَ الخُبْزِ الجافِّ السَّميكِ ، مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذي يَتَناوَلُهُ البَحَّارَةُ في السُّفُنِ أثْناءَ رِحْلَتِهِمْ . وَبَعْدَ أنْ أشْعَلَ فيها النَّارَ أخَذَ قِطْعَةَ الخُبْزِ وَقَدَّمَها إلى التِّمْثالِ الخَشَبِيِّ الصَّغيرِ مُتَرَنِّمًا بِأغْنِيَةٍ عَجيبَةٍ . وَبِطَبيعَةِ الحالِ لَمْ يُحَرِّكِ التِّمْثالُ ساكِنًا ، فَأعادَهُ في الحالِ إلى جَنْبِهِ بَعْدَ أنْ أخْمَدَ النَّارَ ، ثُمَّ أطْفَأ المِصْباحَ وَأوى إلى الفِراشِ .

انْطَلَقَتْ صَيْحَةٌ مِنّي وَابْتَعَدْتُ عَنْهُ ، وَنَهَضْتُ مُسْرِعًا لأشْعِلَ المِصْباحَ مِنْ جَديدٍ .

وَنادَيْتُ صاحِبَ الفُنْدُقِ لِيُنْقِذَني مِمّا أنا فيهِ .

وَعِنْدَئِذٍ نَطَقَ هَذا المارِدُ الأَسْوَدُ مُلَوِّحًا بِذِراعَيْهِ نَحْوي : « مَنْ أَنْتَ ؟ تَكَلَّمْ ، وَإِلّا قَتَلْتُكَ !»

حَمْدًا لِلّهِ أَنْ وَصَلَ صَوْتُ اسْتِغاثَتي لِصاحِبِ الْفُنْدُقِ ، الَّذي حَضَرَ تَوًّا قائِلاً وَهُوَ يَضْحَكُ : « لا تَخَفْ ، وَهَدِّئْ مِنْ رَوْعِكَ . إِنَّ هَذا الصَّيَّادَ يُدْعى كويكْوغ ، وَلَنْ يَمَسَّ شَعْرَةً واحِدَةً مِنْ رَأْسِكَ .»

صَرَخْتُ في وَجْهِهِ قائِلاً : « كُفَّ عَنْ هَذا الضَّحِكِ . لِماذا لَمْ تُخْبِرْني بِشَيْءٍ عَنْ هَيْئَةِ هَذا الصَّيَّادِ أَوْ شَكْلِهِ ؟»

قالَ صاحِبُ الْفُنْدُقِ مُخاطِبًا كويكْوغ : « هَذا الرَّجُلُ

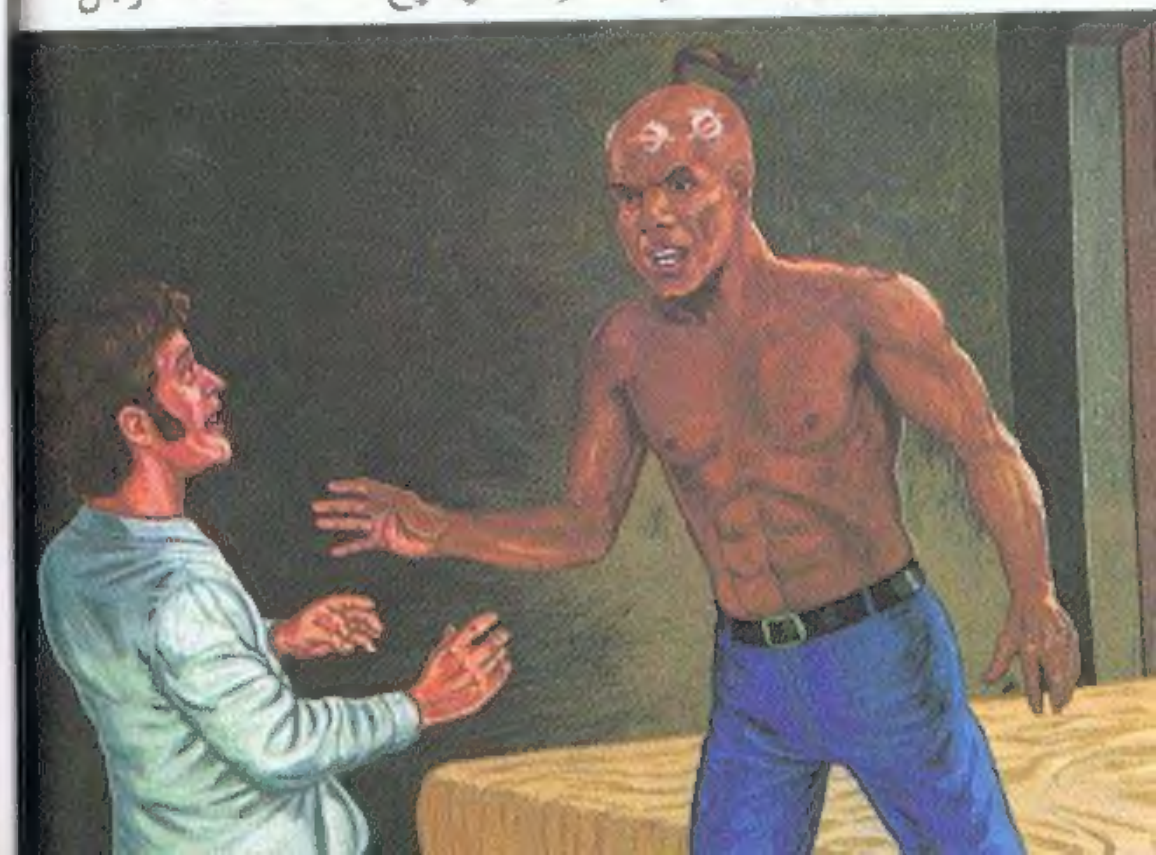

سَيُشارِكُكَ الفِراشَ . هَلْ فَهِمْتَ ما أَقْصِدُ ؟»

رَدَّ كويكْوغ : « نَعَمْ .» ثُمَّ انْتَصَبَ جالِسًا وَأَشْعَلَ غَلْيونَهُ وَأَخَذَ يَسْتَمْتِعُ بِالتَّدْخينِ .

وَخاطَبَني قائِلاً بِطَريقَةٍ مُهَذَّبَةٍ لَطيفَةٍ لِلْغايَةِ وَهُوَ يُفْسِحُ لي مَكانًا في الفِراشِ : « تَفَضَّلْ .»

حانَتْ لي فُرْصَةُ النَّظَرِ إِلَيْهِ في ضَوْءِ المِصْباحِ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ نَظيفٌ حَسَنُ الشَّكْلِ .

وَقُلْتُ ساخِرًا مِنْ نَفْسي : « يا لَها مِنْ ضَجَّةٍ كُبْرى اقْتَعَلْتُها ! فَلا مُبَرِّرَ لَدَيَّ يَجْعَلُني أَتَوَجَّسُ خيفَةً مِنْ هَذا الرَّجُلِ ، فَلَمْ يَكُنْ ثَمِلاً . وَمِنَ الأَفْضَلِ بِالنِّسْبَةِ لي أَنْ أَنامَ مَعَهُ في غُرْفَةٍ واحِدَةٍ عَنْ أَنْ أَنامَ مَعَ رَجُلٍ مِنَ المُدْمِنينَ لِلْخَمْرِ .»

وَاسْتَطْرَدْتُ قائِلاً لِصاحِبِ الْفُنْدُقِ : « أَرْجو أَنْ تُخْبِرَهُ بِأَنْ يَكُفَّ عَنِ التَّدْخينِ ؛ إِذْ لا يَروقُني أَنْ يُلازِمَني في الفِراشِ رَجُلٌ تَفوحُ مِنْهُ رائِحَةُ الدُّخانِ ؛ فَإِنَّ في ذَلِكَ خَطورَةً بالِغَةً .»

أَطْفَأَ كويكْوغ غَلْيونَهُ وَدَعاني مَرَّةً أُخْرى بِكُلِّ أَدَبٍ لِلنَّوْمِ في الفِراشِ .

قُلْتُ لِصاحِبِ الفُنْدُقِ : « الآنَ تَسْتَطيعُ أنْ تَتَفَضَّلَ بِالانْصِرافِ ، وَأسْعَدَ اللّهُ مَساءَكَ !»

ثُمَّ أوَيْتُ إلى الفِراشِ . وَلَمْ أنَمْ في حَياتي قَطُّ أفْضَلَ مِنْ نَوْمي في هَذِهِ اللَّيْلَةِ .

الفصل الثالث

كويكْوغ

عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، لَمْ أسْتَطِعِ القِيامَ مِنَ الفِراشِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ واقِعًا تَحْتَ ضَغْطِ ذِراعِ كويكْوغ الضَّخْمَةِ ، وَلا طاقَةَ لي بِرَفْعِها . وَحاوَلْتُ جاهِدًا التَّخَلُّصَ مِنْهُ دونَ جَدْوى ، بِسَبَبِ قَبْضَتِهِ الشَّديدَةِ وَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ في النَّوْمِ .

نادَيْتُهُ صائِحًا : « كويكْوغ ! كويكْوغ ! اسْتَيْقِظْ !»

وَبَعْدَ كَثيرٍ مِنَ التَقَلُّبِ وَالدَّوَرانِ وَالاسْتِمْرارِ في الكِفاحِ تَمَكَّنْتُ أخيرًا مِنْ أنْ أنْزِعَ نَفْسي مِنْ ثِقْلِ ذِراعِهِ . وَحِينَئِذٍ اسْتَيْقَظَ كويكْوغ وَجَلَسَ مُنْتَصِبًا في السَّريرِ ، وَأخَذَ يَنْظُرُ إلَيَّ وَهُوَ يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ كَما لَوْ كانَ قَدْ نَسِيَني تَمامًا .

وَأخيرًا عَزَمَ عَلى النُّهوضِ مِنَ الفِراشِ . وَأدْرَكْتُ أنَّهُ لا يَعْرِفُ إلّا بِضْعَ كَلِماتٍ مِنَ اللُّغَةِ الإنْجليزِيَّةِ ، عِنْدَما حاوَلَ بِبَعْضِ الأصْواتِ

والإشارات أنْ يُخبِرني بأنّه سيرْتدي ملابسهُ أوّلاً ، ثُمّ يُغادرُ الغُرْفة ويترُكُها لي . فبادرْتُ قائلاً لهُ : « شُكْرًا لك ، يا كويكْوغ ! أشْكُرُكَ على هذا الأدَبِ الجَمّ . »

ثُمّ قُلْتُ لِنَفْسي : « حقًّا ، إنّكَ لا تَرى رَجُلاً مِثْلَ كويكْوغ كُلّ يوْمٍ . إنّي محْظوظٌ جدًّا لمُقابلة هذا المخْلوقِ اللّطيفِ الرّقيقِ . »

أحْسسْتُ أنّي قليلُ الذّوْق وأنا راقِدٌ في الفراشِ ألاحقُهُ بِنظراتي ، ورغْمَ ذلك أحذْتُ أراقبُهُ وهُو يرْتدي ملابسهُ بفضولٍ ليْسَ مِنْ حُسْنِ الأخْلاقِ في شيْءٍ ، وعُذْري في ذلِكَ أنّي لا أصادفُ رَجُلاً مثْلَ كويكْوغ كُلّ يوْمٍ ، فهُوَ جديرٌ بالملاحظةِ ، وسُلوكُهُ وتصرُّفاتُهُ تُغْري بالمتابعَةِ .

في أوّلِ الأمْرِ ، وضعَ قُبّعتَهُ على رأسِهِ ، ثُمّ أخذَ يبْحثُ عنْ حذائِهِ .

سألْتُ نفْسي في شغَفٍ : « ماذا سيفْعلُ بعْدَ ذلِكَ ؟ »

لقدْ جلسَ تحْتَ السّريرِ ليرْتدي حذاءهُ . إنّي لمْ أسْمعْ قطُّ طوالَ حياتي عنْ شخْصٍ يُخْفي نفْسهُ وهُو يلْبسُ الحِذاء .

أخيرًا ظهرَ ثانيةً وقُبّعتُهُ مكْبوسةٌ فوْقَ عيْنيْهِ . ثُمّ بدأَ في حِلاقةِ

لحْيته ، مُسْتعْملاً نصْلَ الحرْبةِ الّتي يسْتخْدمُها في صيْدِ الحيتانِ ، وانهمكَ في إزالةِ شعْرِ وجْهِهِ بِشفْرتِها الحادّةِ . وبعْدَ أنِ انْتهى مِنْ هذه المُهمّةِ سارَ مزْهُوًّا بنفْسه ، خارِجًا من الحُجْرةِ مُلْتفًّا في معْطفِهِ ، حامِلاً حرْبتَهُ .

ارْتديْتُ ملابسي ونزلْتُ على الفوْرِ إلى صالةِ الفُنْدُق ، وهُناك ابْتدرَني صاحِبُ الفُنْدُقِ بالتّحيّةِ والسّلامِ .

رددْتُ التّحيّةَ قائلاً : « صباحُ الخيْرِ . لقدْ سحرْت بالتّأكيدِ مِنْ عصْرُفاتي اللّيْلةَ الماضيةَ ! » ثُمّ ابْتسمْتُ لأنّي لا أسْتطيعُ أنْ ألومهُ على شيْءٍ . في مثْلِ هذه الأحْوالِ فإنّ أفْضلَ ما يُمْكنُ عمَلُهُ هُوَ إطْلاقُ ضحْكةٍ عاليةٍ ، وهذا ما واجهني به صاحبُ الفُنْدُق ، لكنّي لمْ أبْدِ اهْتماماً بأنْ أكونَ أنا المقْصودَ بهذهِ الضّحْكةِ وما تخْفي وراءها مِنْ معْزًى

تجمّعَ نُزلاءُ الفُنْدُقِ في هذه الصّالة الّتي كادتْ تكْتظُّ عنْ آخرِها . وكانوا جميعًا منْ صيّادي الحيتانِ على وجْهِ التّقْريبِ . إنّهمْ جماعةٌ من الرّجالِ يتّصفونَ بالشّجاعةِ والقوّةِ ، ومُعْظمُهُمْ مُطْلقو لحاهُمْ

وعنْدما دعانا صاحبُ الفُنْدُق لتناوُلِ طعامِ الإفْطارِ ، ذهبْنا جميعًا إلى الحُجْرةِ الأخْرى تلبيةً للنّداءِ .

الفصل الرابع

الصَّديقُ كويكْوغ

قَضَيْتُ طيلةَ ذَلِكَ اليَوْمِ أتجوَّلُ حَوْلَ المياهِ الصَّغيرِ حَتَّى المَساءِ ، ثُمَّ عُدْتُ إلى الفُنْدُقِ حَيْثُ وَجَدْتُ كويكْوغ جالِساً أمامَ المِدْفَأةِ . شَعَرْتُ بالارْتياحِ عِنْدَما شاهَدْتُهُ مَرَّةً أخْرى ، وَجَلَسْتُ بِجِوارِهِ مُبْدِياً لَهُ بَعْضَ الإشاراتِ الوُدِّيَّةِ ، بادِلاً أقْصى ما في وُسْعي للتَّحَدُّثِ مَعَهُ ، ثُمَّ بادَرْتُ بسُؤالِهِ : « هَلْ تَسْمَحُ لي أنْ أشارِكَكَ غُرْفَتَكَ مَرَّةً أخْرى هَذِهِ اللَّيْلَةَ ؟» فَبَدا عَلَيْهِ السُّرورُ كَما تَوَقَّعْتُ .

أجاب : « أجَلْ ، أجَلْ .» ثُمَّ أشْعَلَ غَلْيونَهُ وَجَلَسْنا مَعاً أمامَ المِدْفَأةِ نُدَخِّنُ في هُدوءٍ وَاسْتِرْخاءٍ . وَتَوَثَّقَتْ عُرَى الصَّداقَةِ بَيْنَنا ، وَبَدا عَلَيْهِ أنَّهُ قَدِ ارْتاحَ لِصُحْبَتي ، الأمْرُ الَّذي دَعاني بِكُلِّ تَأكيدٍ إلى أنْ أبادِلَهُ هَذا الوُدَّ وَهَذِهِ المَشاعِرَ الطَّيِّبَةَ .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الوَقْتِ ، أخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ ما كانَ مَعَهُ مِن نُقودٍ

وقَسَّمَها حُزْمَتَيْنِ ، دَفَعَ بِجُزْءٍ مِنْهُما نَحْوي قائِلاً : « هذا لَكَ .»

قُلْتُ : « لا ، لَنْ آخُذَ نُقودَكَ .»

قالَ : « نَحْنُ نَقْتَسِمُ هَذِهِ النُّقودَ مَعاً .» ثُمَّ وَضَعَ نَصيبي في جَيْبي .

سألْتُهُ : « أخْبِرْني مِنْ أيِّ بَلَدٍ أتَيْتَ ؟» فأخَذَ يَقُصُّ عَلَيَّ بِلُغَتِهِ الإنْجليزِيَّةِ البَسيطَةِ ما يَلي :

« بِلادي عِبارَةٌ عَنْ جَزيرَةٍ نائِيَةٍ تُسَمَّى كوكوفوكو ، عَلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ جِهَةَ الجَنوبِ الغَرْبِيِّ . والِدي مَلِكُ هَذِهِ الجَزيرَةِ ، وَبِصِفَتي نَجْلَهُ الأكْبَرَ فأنا أميرُها ، ولَكِنَّني أتَوَقُ إلى الانْطِلاقِ بَعيداً عَنْ جَزيرَتي ؛ أمَلاً في مُشاهَدَةِ العالَمِ الخارِجِيِّ . وَلَمْ يَكُنْ تَحْقيقُ هَذِهِ الرَّغْبَةِ بالأمْرِ اليَسيرِ ، لأنَّ والِدي لَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ لي بِمُغادَرَةِ البِلادِ . وَفي النِّهايَةِ ، رَسَتْ إحْدى السُّفُنِ عَلى الجَزيرَةِ ؛ فَانْتَهَزْتُ هَذِهِ الفُرْصَةَ ، وَتَقَدَّمْتُ إلى رُبّانِها ، فَوافَقَ عَلى أنْ يَأخُذَني مَعَهُ شَرْطَ أنْ أعْمَلَ عَلى السَّفينَةِ كَبَحّارٍ عادِيٍّ . وَخِلالَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ البَحْرِيَّةِ تَعَلَّمْتُ الكَثيرَ ، وَأصْبَحْتُ أحَدَ صَيّادي الحيتانِ المُدَرَّبينَ .»

سألْتُهُ مُسْتَفْسِراً : « وَماذا تَنْوي أنْ تَفْعَلَ الآنَ ؟»

أجابَ قائِلاً : « أريدُ أنْ أبْحِرَ مَرَّةً أخْرى بِأسْرَعِ ما يُمْكِنُ .»

قُلْتُ : « إنَّني أيْضاً أريدُ أنْ أبْحرَ . وعِدا أقْصِدُ جزيرَة نانْتوكت ، حَيْثُ آمَلُ أنْ أجِدَ سَفينَةً أعْملُ عَلَيْها .»

« سَأذْهَبُ مَعَكَ ، وَسَنَبْحِرُ مَعاً عَلى سَفينَةٍ واحِدَةٍ .»

سَعِدْتُ سَعادَةً غامِرَةً بِهذِهِ الفِكْرَةِ ، لأنَّ كويكْوع أحَدُ الصيَّادين الَّذين لديْهِمْ دِرايَة بِكُلِّ شيْءٍ عَنْ سُفُنِ صَيْدِ الحيتانِ ، والرِّحالِ الَّذينَ يُبْحِرون عَلَيْها ، في حين أنني لا أعْرِفُ شَيْئاً عَنْ ذَلِكَ ، وَمُصاحَبَتُهُ لي ستُعاوِنُني كَثيراً في حَياتي الجَديدَة

صِحْتُ قائِلاً : « كويكْوغ ! هَذِهِ فِكْرَة رائِعَة !»

وتصافحْنا في سُرورٍ ومَرحٍ ابْتِهاجاً بعَزْمِنا عَلى العَمَلِ مَعاً .

وعِنْدَما أقْبَلَ اللَّيْلُ ، صَعِدْنا إلى غُرْفَتِنا وَرَقَدْنا في فِراشِنا وَأطْفَأنا المِصْباحَ ، وَفي الحالِ رُحْنا في نَوْمٍ عَميقٍ .

وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، دَفَعْتُ حِسابَ الفُنْدُقِ لنا نَحْنُ الاثْنَيْنِ مِنَ النُّقودِ الَّتي أعْطانيها كويكْوغ أمْسِ . وَكانَ صاحِبُ الفُنْدُق لا يَفْتَأ يَضْحَكُ عَلى ما بَدَرَ مِنّي في اللَّيْلَةِ الأولى .

وَخاطَبَني قائِلاً بِتَعَجُّبٍ : « يا لَهُ مِنْ أمْرٍ يُثيرُ الدَّهْشَةَ والعَجَب ! هَلْ أصْبَحْتُما أصْدِقاء فَجْأةً ، ولَنْ تعود تَخافُ مِنْ كويكْوغ بَعْد

الآنَ ؟»

ضَحِكْتُ وأعْرَبْتُ لَهُ عَنِ امْتِنانِي لِحُسْنِ مُعامَلَتِهِ . وَعادَرْنا الفُنْدُق ، ثُمَّ اسْتَأجَرْنا عَرَبَةً نَحْمِلُ عَلَيْها مَتاعَنا إلى القارِبِ الصَّغيرِ ، الَّذي سَيَنْقُلُنا إلى جَزيرَةِ نانْتوكِت .

الفصل الخامس

السَّفينةُ بِيكُوْد

عندما وصلنا إلى بانتوكت كان اللَّيْلُ قدْ حيَّم على الجزيرة وكان صاحبُ الفُنْدُقِ بيوبدْفورد قدْ أوْصانا بأنْ نُقيمَ في فُنْدُقِ مُريحٍ بالجزيرة ، يَمْلِكُهُ أخوهُ ، وقال لنا : « في دلكَ الفُنْدُق ستتناولان أشْهى حساء سمكٍ ، لمْ تتذوَّقا مثْلهُ في حياتكُما !»

استقْبلتْنا زوْجةُ صاحِبِ الفُنْدُقِ السَّيِّدةُ هاسّي بِتَرْحابٍ شديدٍ ، وقدَّمتْ لنا حساءَ السَّمك المشْهورَ في وحْيةِ العشاء ، ثُمَّ أعْطتْنا مصْباحًا نصْعدُ به إلى غُرْفة النَّوْم ولكنْ عنْدما شرعْنا في الصُّعود قالتْ لنا : « ممْنوعٌ أخْذُ حراب الصَّيْد إلى حُجْرة النَّوْم .»

استفْسرْتُ مُتسائلاً : « وَلكِنْ لِماذا ؟» وكُنْتُ أعْلمُ أنَّ كويكْوغ لا يُحبُّ أنْ يتْرُك حرْبتهُ بعيدًا عنْ بصرِه ، بلْ يُحبُّ أنْ يَصْطَحِبَها مَعَهُ عَلى الدَّوامِ .

أجابتْ . « لِخُطورَةِ هَذا الأمْرِ : فَقَدْ حدثَ أنْ وجدْنا أحد الأشخاص منْ زُرَّاع الفُنْدُق مقْتولاً بِحَرْبةٍ في جسدِه ، ومُنْذُ ذلِك الوقْت قرَّرْنا ألا يصْحَب أيُّ فَرْدٍ مثْل هذه الأشْياء الخطِرَة في الغُرف نهائيًا ، ولِذلكَ ، يا سَيِّدُ كويكْوغ ، فإنَّني سأحْتفِظُ لكَ بها حتَّى الصَّباح .»

وبهذا التَّعْليل الَّذي أوْضحتْهُ زوْجةُ صاحب الفُنْدُقِ كان على كَويكْوغ أنْ يقْتنع بذلك . أمَّا بالنِّسْبة للتِّمْثالِ الخشبيِّ الصَّغيرِ الَّذي يحْمِلُهُ كويكْوغ في جيْبِه ، فكان يُطْلقُ عليْهِ اسْم يوحو .

وفي صباح اليَوْم التَّالي قال لي كويكْوغ : « يقولُ يوجو إنَّك تحبُّ أنْ تذْهب بمُفْردِكَ للْبحْث عنْ سَفينةٍ تُبْحرُ عليْها .»

قُلْتُ . « ولكنَّك على علْمٍ بكُلِّ ما يتعلَّقُ بِسُفُنِ صيْدِ الحيتان ، وأنا لا أعْرِفُ شيْئًا عنْها ، وعليْك أنْ تقوم بنفْسكَ باخْتيارِ السَّفينةِ المُناسِبَةِ لنا .»

أجاب كويكْوغ : « هذا مُسْتحيلٌ . عليْك أنْت القيامُ بهذه المُهِمَّةِ بِمُفْرَدِكَ .»

وهكذا تركْتُ كويكْوغ مع يوحو وعيْونه ، وذَهبْتُ مُتَّجِهًا نحْو البحْرِ ، حيْثُ سألْتُ شخْصًا أوْ شخْصيْن مُعاونتي في هذا الصَّدَد ،

قائلاً : « هَلْ تَعْرِفُ أَيَّ سَفينَةٍ توشِكُ عَلى القِيامِ بِرِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ لِلصَّيْدِ ؟»

قالَ أَحَدُ الأَشْخاصِ : « نَعَمْ . يوجَدُ ثَلاثُ سُفُنٍ مُسْتَعِدَّةٌ لِلإِبْحارِ وَكُلُّها تَقومُ بِالتَّحْضيراتِ اللّازِمَةِ لِلْقِيامِ بِرِحْلاتٍ بَحْرِيَّةٍ تَسْتَغْرِقُ ثَلاثَ سَنَواتٍ .»

نَظَرْتُ إِلى السُّفُنِ الثَّلاث ، وَاسْتَقَرَّ نَظَري عَلى السَّفينَةِ بيكُوْد ، وَهِيَ سَفينَةٌ قَديمَةٌ وَصَغيرَةٌ نَوْعًا ما ، سَطْحُها غَيْرُ مُسْتَوٍ ، وَتُدارُ بِيَدٍ طَويلَةٍ مَصْنوعَةٍ مِنْ إِحْدى عِظامِ فَكِّ الحُوتِ ، وَيَقومُ أَحَدُ البَحّارَةِ بِقِيادَةِ السَّفينَةِ وَتَوْجيهِها بِتَحْريكِ هَذِهِ اليَدِ .

قابَلْتُ أَحَدَ ضُبّاطِ السَّفينَةِ وَاتَّفَقْتُ مَعَهُ عَلى أَنْ أَنْضَمَّ أَنا وَكويكْوغ إِلى طاقَمِ البَحّارَةِ العامِلِ عَلى السَّفينَةِ ، إِبّانَ رِحْلَتِها القادِمَةِ .

سَأَلْتُ : « أَيْنَ رُبّانُ السَّفينَةِ ؟»

« وَلِماذا تُريدُ أَنْ تُقابِلَ الرُّبّانَ آنَحاب ؟ لَقَدِ اتَّفَقْنا وَيُمْكِنُكَ اعْتِبارُ نَفْسِكَ مِنَ الآنَ أَحَدَ أَفْرادِ بَحّارَةِ السَّفينَةِ .»

« نَعَمْ ، وَلَكِنَّني أَوَدُّ أَنْ أَراهُ .»

« إِنَّهُ لَيْسَ في حالٍ طَيِّبَةٍ . وَلا أَعْرِفُ بِالضَّبْطِ مَدى يَفْعَلُ الآن ، فَهُوَ يُقيمُ في مَنْزِلِهِ . وَلا يَبْدو أَنَّهُ يُعاني مِنْ مَرَضٍ ما ، وَلَكِنَّ أَحْوالَهُ لَيْسَتْ عَلى ما يُرامُ أَيْضًا .»

وَعِنْدَما بَدا عَلى ضابِطِ السَّفينَةِ عَدَمُ الرَّغْبَةِ في أَنْ يَبوحَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، كانَ لي أَنْ أَقْنَعَ بِهَذا القَدْرِ مِنَ الإِجابَةِ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، اصْطَحَبْتُ كويكْوغ إِلى السَّفينَةِ ، حَيْثُ قابَلْنا السَّيِّدَ ستاربك كَبيرَ الضُّبّاطِ ، الَّذي يُعاوِنُهُ ضابِطانِ آخَرانِ . وَبِالطَّبْعِ كُلُّهُمْ يَعْمَلونَ تَحْتَ قِيادَةِ رُبّانِ السَّفينَةِ .

قَدَّمْتُ كويكْوغ إِلى السَّيِّدِ ستاربك قائلاً : « هَذا صَديقي الَّذي سَيُبْحِرُ مَعَنا .»

سَأَلَهُ : « هَلْ أَنْتَ صَيَّادُ حيتانٍ ؟»

أجابَ كويكْوغ : « نَعَمْ ، وَلَدَيَّ خِبْرَةٌ واسِعَةٌ في هَذا المَجالِ .»

حِينَئِذٍ بَدا على الضَّابِطِ اغْتِباطُهُ بِنا . وَشَعَرْتُ بِدَوْري أَنَّ الحَظَّ قَدْ حَالَفَنا بِالعَمَلِ بِهَذِهِ السَّفِينَةِ .

قِيلَ لَنا إِنَّ السَّفِينَةَ سَتَبْحَرُ في غُضونِ بِضْعَةِ أَيَّامٍ . وَسَتَسْتَغْرِقُ رِحْلَتُها ثلاثَ سَواتٍ ، وكافَّةُ احْتِياجاتِنا خِلالَ هَذِهِ المُدَّةِ الطَّويلَةِ يَقْتَضي الأَمْرُ تَخْزِينَها في السَّفِينَةِ قَبْلَ الإِقْلاعِ . وَمِنَ الواجِبِ أَلا نَنْسى شَيْئًا ؛ فَإِنَّ سُفُنَ صَيْدِ الحيتانِ أَكْثَرُ السُّفُنِ تَعَرُّضًا لِلْحَوادِثِ وَالمَخاطِرِ ، وَأَكْثَرُها فَقْدًا لِلْمُعَدَّاتِ . وَلِهذا السَّبَبِ عَلَيْنا أَنْ نَأْخُذَ مَعَنا مَزيدًا مِنَ المُتَطَلَّباتِ . وَقَدْ تَمَّ تَزْويدُ السَّفِينَةِ بِقَوارِبَ وَحِرابٍ إِضافِيَّةٍ ، وَمَزيدٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَقْريبًا ، فيما عدا رُبَّانَ السَّفِينَةِ ، فَلَيْسَ لَها إِلَّا رُبَّانٌ واحِدٌ .

الفصل السادس

الرُّبَّانُ آخاب

تردَّدْنا أنا وكويكْوغ على السَّفِينَةِ بِيكْوُد عِدَّةَ مَرَّاتٍ خِلالَ فَتْرَةِ إِعْدادِها لِلإِقْلاعِ ، وَلَكِنَّنا رَغْمَ ذَلِكَ لَمْ نُشاهِدِ الرُّبَّانَ ، الأَمْرَ الَّذي دَعاني لِسُؤالٍ . « كَيْفَ حالُ الرُّبَّانِ آخاب ؟ ومتى سيعودُ إِلى السَّفِينَةِ ؟» وكانَتِ الإِجابَةُ « إِنَّهُ في تَحَسُّنٍ ، وَنَحْنُ نَتَوَقَّعُ قُدومَهُ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرى ؟»

إِنَّني لا أَحِسُّ مِنْ أَعْماقي بِالسَّعادَةِ الحَقيقِيَّةِ ، لاقْتِرابِ مَوْعِدِ بِدايَةِ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ طَويلَةٍ ، دونَ أَنْ أَتَعَرَّفَ على الرُّبَّانِ الَّذي سأَعْمَلُ تَحْتَ قِيادَتِهِ ، وَلَكِنِّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا إِزاءَ ذَلِكَ

وَفي اليَوْمِ السَّابِقِ عَلى إِبْحارِنا ، اسْتَدْعانا كَبيرُ ضُبَّاطِ السَّفِينَةِ السَّيِّدُ ستارْبَك . وَكَمْ أُعْجِبْتُ بِهِ لِما يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ هُدوءٍ وَرَزانَةٍ !

قالَ لَنا : « هذا هُوَ لَقارِبُ المُخَصَّصُ لي . وَلَنْ أَصْحَبَ مَعي

فيه أيّ رجُلٍ لا يخافُ من الحوت ، فإنّ الحمقى من الرّجالِ فقطْ هُمُ الّذين يَستَهينون بخطورة الحيتان ولا يخشَوْنها .» ثُمّ نادى ستارْبَك كويكْوغ قائلاً : « لَقَدْ سمِعْتُ أنّكَ صيّادُ حيتانٍ ماهرٌ . وَقَدِ اخترْتُكَ لِتَصْحَبَني في قاربي .»

شعرْت بالفخْرِ لاختيار صديقي للعمَل مع كبير الضبّاط ، المسْئولِ عن القاربِ الأوّل الّذي يُغادرُ سفينةَ الصّيْد لمُتابعة الحيتانِ عِنْدَ اصْطِيادِها .

كذلك كان لكُلٍّ من الضّابطيْنِ الآخريْن ، اللّذيْن يُدْعيانِ ستاب وفلاسْك ، قاربٌ . ومن المُعْتاد أنْ يختار هؤلاء الضبّاطُ جميعاً الصيّادينَ الّذينَ يَصْحَبونَهُمْ في قَواربِهِمْ .

وقع اختيارُ الضّابطيْنِ على صيّاديْن اخريْنِ هُما تاشْتيغو أحدُ الهُنود الحُمْر ، وَ داغو وَهُوَ رَجُلٌ ضَخْمٌ أسْوَدُ البَشرة .

وفي صباح اليوْم التّالي استيْقظْنا أنا وكويكْوغ في ساعةٍ مُبكّرةٍ جِدًّا ، وَكانَ الظّلامُ حالِكاً عِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ السّفينَةِ . وَقَدِ اعْتَرَتْني الدّهْشَةُ حينَ سَمِعْتُ صَوْتَ وَقْعِ أقْدامٍ تَجْري أمامَنا .

سألْتُ كويكْوغ : « هلْ هؤلاء النّحّارةُ مُتّجهون إلى سفينتِنا ؟ رُبّما تُقْلِعُ السّفينةُ قبْل الفجْرِ ، ويكونُ بذلك قدْ تأخّرْنا عنْ

موْعدها .»

حينئذٍ أسْرعْنا الخُطى حتّى وَصلْنا إلَيْها في الحالِ ، ولكنّنا لَمْ نر أحدًا من النّحّارة ، بلْ على العكْسِ وجَدْناهُمْ يغطّون في نَوْمٍ عميقٍ فأسْقطْناهُمْ ، وذكّرَ لي كويكْوغ أنّهُ لَمْ يَسْمَعْ وَقْعَ الأقْدام الّتي طرقتْ أذُنَيّ مِنْ قَبْلُ .

قيل لنا إنّ الرُّبّان وصل اللّيْلة الماضية ، وَإنّهُ مَوْجودٌ حاليًا على السّفينة . ولَمْ يمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حتّى أقْبلَ باقي النّحّارة ، وأصْبحتِ السّفينَةُ عَلى أهْبَةِ الاسْتِعْدادِ لِلإبْحار .

غادرْنا جزيرة ناتوكت في صباح يوم تلبّدتِ السّماءُ فيهِ بالغُيوم ، الّتي حجبت الشّمْس . ولأوّل مرّةٍ وقَعَ بصري على رُبّان السّفينة الّذي بدا لي في صُورة رجُلٍ حادّ الطّبْعِ قويّ الشّكيمة . على أحد حاجبيْ وجْهِهِ علامةٌ بيْضاءُ طَويلة ، هِيَ في الغالِبِ أثَرُ لثام جُرْحٍ قديمٍ امْتدّ حتّى رقبَتِه ، وَرُبّما امْتدّ أكْثَر مِنْ ذلك تحْت ملابسه . كان واقفًا على سطْحِ السّفينة لا يتفوّهُ بكلمةٍ لأحدٍ . ولاحظْتُ أنّهُ فاقدٌ إحْدى ساقَيْه ، واسْتَبْدَلَ بها ساقًا اصْطناعيّةً منْ إحْدى عظامِ الحوتِ المصْقولة ، واعْتاد أنْ يُثبّتها في فُتْحةٍ على سطْحِ السّفينة ، حيْثُ يسْتطيعُ بِهذه الطّريقةِ أنْ يقِف في توازُنٍ ثابتٍ

مُتَطَلِّعًا إلى البَحْرِ .

وَقَفَ الرُّبّانُ آحاب على سَطْحِ السَّفينةِ بِيكُوْد وَأمامَهُ جَميعُ رِجالِهِ مِنْ ضبّاطٍ وَبَحّارةٍ . وَرَفَعَ يَدَهُ مُمْسِكًا بِقِطْعَةٍ مِنَ النُّقودِ الذَّهَبِيَّةِ وَنادى فيهِمْ : « أنْصِتوا جَيِّدًا . إنَّ أوَّلَ رَجُلٍ يُشاهِدُ الحوتَ الأبْيَضَ سَيَفوزُ بِهذِهِ العُمْلَةِ الذَّهَبِيَّةِ جائِزَةً لَهُ .»

صاحَ الرِّجالُ في فَرَحٍ : « مُوبي دِك ، الحوتُ الأبْيَضُ ، سَنُلاحِقُهُ في كُلِّ مَكانٍ بِالبَحْرِ حَتّى نَقْضِيَ عَلَيْهِ !»

« نَعَمْ ، إنَّهُ الحوتُ الأبْيَضُ . ابْحَثوا عَنْهُ ، يا رِجالُ ، وَعِنْدَما تَجِدونَهُ صيحوا بِأعْلى أصْواتِكُمْ . أخْبِروني ، ماذا تَقولونَ ؟»

صاحَ الرِّجالُ : « ظَهَرَ الحوتُ اللَّعينُ ! ظَهَرَ بِأنْفِهِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! ظَهَرَ تَيّارُ الرَّذاذِ الَّذي يَنْفُسُهُ مِنْ أنْفِهِ عاليًا فَوْقَ سَطْحِ الماء !»

ردَّ عَلَيْهِمُ الرُّبّانُ : « داكَ ما تَقولونَهُ بِالضَّبْطِ . إنَّهُ مُوبي دِك ، الَّذي انْتَزَعَ ساقي مِنْ جَسَدي . إنَّهُ الحوتُ الأبْيَضُ المَلْعونُ الَّذي قَهَرَني وَتَرَكَني بِساقٍ وَحيدَةٍ حَتّى آخِرِ أيّامي . لا بُدَّ مِنَ الانْتِقامِ مِنْهُ .»

ثُمَّ صاحَ بِأعْلى صَوْتِهِ في غَضَبٍ وَمَرارَةٍ : « سَأُطارِدُهُ في كُلِّ أنْحاءِ العالَمِ ، قَبْلَ أنْ أقْطَعَ الأمَلَ في العُثورِ عَلَيْهِ . مادا تَرَوْنَ أيُّها

الرِّجالُ ؟ هَلْ تَتَّفِقونَ عَلى ذَلِكَ مِنَ الآنَ ؟ أعْتَقِدُ أنَّ لَدَيْكُمْ مِنَ الشَّجاعَةِ الفائِقَةِ ما يُؤَهِّلُكُمْ لِهَذا الأمْرِ !»

هَتَفَ البَحّارَةُ في حَماسٍ : « حَقًّا ! حَقًّا ! مُراقَبَةً صارِمَةً ، وَيَقَظَةً ساهِرَةً . وَتَطَلُّعًا لاصْطِيادِ هَذا الحوتِ المُفْتَرِسِ دونَ كَلَلٍ أوْ مَلَلٍ .»

قالَ الرُّبّانُ في اطْمِئْنانٍ : « بارَكَ اللّهُ فيكُمْ ، يا رِجالُ . وَلْنَشْرَبْ جَميعًا نَخْبَ هَذا الوَعْدِ .»

في صِلِّ اللِّقاءِ العاصِفِ بَيْنَ الرُّبّانِ وَالبَحّارةِ ، بَدَتْ عَلى السَّيِّدِ ستارْبَك مَلامِحُ الشَّكِّ وَالرِّيبَةِ ، الأمْرُ الَّذي لَفَتَ نَظَرَ الرُّبّانِ ؛ فَسَأَلَهُ مُسْتَفْسِرًا : « ماذا دَهاكَ ، يا سَيِّدُ ستارْبَك ؟ لِماذا يَبْدو وَجْهُكَ عابِسًا ؟ أ لا تَنْوي اصْطِيادَ الحوتِ الأبْيَضِ ؟»

أجابَ ستارْبَك : « إنَّني لَعَلى اسْتِعْدادٍ تامٍّ لِلْقِيامِ بِأيِّ مُهِمَّةٍ . ولكنَّ الانْتِقامَ مِنْ حوتٍ لا يَخْتَلِفُ عَنِ الحُبودِ في شَيْءٍ لا أوافِقُ عَلى ذَلِكَ ، فَهَذا أمْرٌ غَيْرُ طَبيعِيٍّ عَلى الإطْلاقِ .»

« هَذا كَلامٌ فارِغٌ ؟ إنَّني أمْقُتُ هَذا الحوتَ ، وَسَأنْتَقِمُ مِنْهُ نَظيرَ ما أَلْحَقَهُ بي مِنْ عاهَةٍ مُسْتَديمَةٍ .»

هَمَسَ ستارْبَك في فَزَعٍ : « فَلْيَحْفَظْنا اللّهُ جَميعًا !»

وصاحَ الرُّبّانُ آحاب : « اشْرَبوا جَميعاً تَحْبَ ما نَواعِدْنا عَلَيْهِ !»
وشَرِبَ الرِّجالُ وَهُمْ يتصايَحون وَيَلْعَنونَ عدُوَّهُمُ الحوتَ الأبْيَضَ ، فيما
عَدا ستارْبَك وَحْدَهُ ، الَّذي بَدا وَجْهُهُ شاحِباً ، فَقَدْ تَرَكَ شرابَهُ دونَ
أنْ تَلْمِسَهُ شَفَتاهُ .

الفصل السابع

مُوبي دِك الحوتُ الأبْيَض

كُنْتُ واحِداً مِنْ أولئِكَ البَحّارَةِ ، الَّذينَ هَتَفوا وَشَرِبوا . وَلِلْحَقِّ كانَ هُتافي وَصياحي أعْلى مِنْ أصْواتِهِمْ ، رُبَّما بِسَبَبِ ما أحْسَسْتُ بِهِ مِنْ خَوْفٍ شَديدٍ ، فَلَمْ أسْمَعْ قَطُّ عَنْ ذَلِكَ الحوتِ القاتِلِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنّي وَجَميعَ البَحّارَةِ الآخَرينَ باسْتِثْناءِ ستارْبَك - قَدْ أقْسَمْنا عَلى الانْتِقامِ مِنْهُ . وَفيما بَعْدُ أخْبَرَني البَحّارَةُ قِصَّةَ مُوبي دك .

لَمْ يَرَهُ كَثيرٌ مِنَ الرِّجالِ ، وَالقَليلُ مِنْهُمْ لِلآنَ هُمُ الَّذينَ واجَهوهُ وَقاتَلوهُ . وَأولئِكَ الَّذينَ حاوَلوا اصْطِيادَهُ أصيبوا بِكَسْرٍ أطْرافِهِمْ أوْ فَقْدِ إحْداها ، وَبَعْضُهُمْ لَقِيَ حَتْفَهُ أثْناءَ هَذِهِ المُحاوَلَةِ ، بَلْ إنَّ هَذِهِ القِصَصَ قَدْ مَلأتْ كَثيراً مِنَ الوَسائِلِ بِالذُّعْرِ وَالفَزَعِ .

مُوبي دِك حوتٌ ضَخْمٌ مُفْتَرِسٌ ، لَهُ رَأسٌ أبْيَضُ غَريبُ الشَّكْلِ

وَظَهْرٌ أَبْيَضُ مُقَوَّسٌ . وَلَمْ يَكُنْ حَجْمُهُ غَيْرَ المَأْلوفِ أَوْ لَوْنُهُ هُما مَنْعَتَ الحَوْفِ وَالهَلَعِ فَحَسْبُ ، بَلْ كانَتْ مَهارَتُهُ الفائِقَةُ في إِلْحاقِ الضَّرَرِ وَالمَصائِبِ بِمُقاتِليهِ ، أَيْضًا هِيَ مَصْدَرَ الخَطَرِ ؛ إِذْ كانَ عَلى قَدْرٍ مِنَ المَهارَةِ لا يَقِلُّ عَمَّا يَتَمَيَّزُ بِهِ الصَّيّادونَ الَّذينَ يُلاحِقونَهُ أَمَلاً في اصْطِيادِهِ ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ أَقْوى مِنْهُمْ وَأَشَدُّ عُنْفًا وَضَراوَةً . فَفي بَعْضِ الأَحْيانِ بَيْنَما تُسْرِعُ قَوارِبُ الصَّيْدِ مُتَعَقِّبَةً إِيَّاهُ ، إِذا بِهِ تارَةً يَسْتَديرُ فَجْأَةً مُتَّجِهًا مُباشَرَةً نَحْوَها مُصْطَدِمًا بِها ، حَيْثُ يُحيلُها إِلى قِطَعٍ مُتَناثِرَةٍ ، قادِفًا بِمَنْ فيها مِنَ الصَّيّادينَ في البَحْرِ ، وَتارَةً أُخْرى يَرُدُّ هَذِهِ القَوارِبَ دافِعًا إِيَّاها إِلى التَّراجُعِ نَحْوَ سَفينَةِ الصَّيْدِ في فَزَعٍ وَاضْطِرابٍ .

قال لي كويكوغ : « لَقَدْ أَخْبَرَني النَّحّارَةُ أَنَّ الرُّبّانَ آخاب في مُحاوَلاتٍ سابِقَةٍ لاصْطِيادِ مُوبي دِك – فَقَدَ ثَلاثَةَ قَوارِبَ وَسَقَطَ جَميعُ مَنْ فيها مِنَ النَّحّارَةِ في البَحْرِ ، وَعِنْدَما هَجَمَ الرُّبّانُ عَلى الحوتِ وَأَصابَهُ بِحَنْجَرِهِ ، قَضَمَ الحوتُ ساقَهُ بِأَسْنانِهِ القَوِيَّةِ ، وَفَصَلَها عَنْ جِسْمِهِ . وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ ، جُنَّ جُنونُ الرُّبّانِ . وَعِنْدَما أَصْبَحَ قادِرًا عَلى السَّيْرِ مَرَّةً أُخْرى بِساقٍ اصْطِناعِيَّةٍ مِنْ إِحْدى عِظامِ

الحُوتِ ، لَمْ يُفَكِّرْ إِلا في الانْتِقامِ مِنْ ذَلِكَ الحوتِ الأَبْيَضِ »

هَذا هُوَ المَحْلوقُ الَّذي أَقْسَمْنا أَنا وَالبَحّارَةُ الآخَرونَ عَلى اصْطِيادِهِ وَالظَّفَرِ بِهِ .

الفصل الثامن

الاستِعْدادُ لِلصَّيْد

أبْحَرَتْ سَفينَتُنا طَوالَ عِدَّةِ أسابيع لَمْ نُشاهِدْ خِلالَها أيَّةَ حيتانٍ . في أوَّلِ الأمْرِ كانَ الطَّقْسُ بارِدًا ، ثُمَّ أصْبَحَ أكْثَرَ دِفْئًا فيما بَعْدُ وَأصْفَتِ الأيَّامُ الَّتي سَطَعَتْ فيها الشَّمْسُ ، عَلى الرِّحْلَةِ بَهْجَةً وَسُرورًا . وَعَكَفْنا جَميعًا عَلى إعْدادِ قَوارِبِ الصَّيْدِ وَتَجْهيزِها اسْتِعْدادًا لِلْعَمَلِ .

حَدَّثَني أحَدُ البَحَّارَةِ قائِلاً . « إنَّ السَّيِّدَ ستاب الضَّابِطَ لِثاني رَجُلٌ شُجاعٌ باسِلٌ ، يُدَخِّنُ طَوالَ الوَقْتِ وَلا أذْكُرُ أنِّي رَأيْتُهُ دون غَليونٍ في فَمِهِ وَلَوْ مَرَّةً واحِدَةً ، بَلْ أعْتَقِدُ أنَّهُ يَذْهَبُ بِالنَّوْمِ وَهُوَ عَلى هَذِهِ الحالَةِ ! » وَضَحِكَ كويكْوغ عِنْدَما سَمِعَ هَذا الحَديثَ .

قالَ : « سأصاحِبُ السَّيِّدَ ستاربَك في القارِبِ الأوَّلِ ، الَّذي يُغادِرُ السَّفينَةَ عِنْدَ اكْتِشافِ وُجودِ أحَدِ الحيتانِ ، وعِنْدَما يَقْتَرِبُ

قارِبُنا مِنْهُ بِدَرَجَةٍ كافِيَةٍ سَأرْشُقُ حَرْبَتي في أحَدِ جَوانِبِهِ . »

كانَ السَّيِّدُ ستاب مَسْئولاً عَنِ القارِبِ الثّاني ، وَقَدِ اخْتارَ تاشْتيغو لِيَكونَ الصَّيَّادَ الَّذي يُرافِقُهُ . أمَّا القارِبُ الثّالِثُ فَكانَ مُخَصَّصًا لِلضّابِطِ فلاسك ومُرافِقِهِ الصَّيَّاد دغو الرَّجُلِ الأسْوَدِ .

قُلْتُ . « إنَّ هَؤلاءِ الضُّبّاطَ الثَّلاثَةَ لَهُمْ دَوْرٌ هامٌّ لِلْعابَةِ »

رَدَّ كويكْوغ : « أجَلْ ؛ فَنَجاحُ الرِّحْلَةِ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِمْ ، وَكَمِّيَّةُ الزَّيْتِ الَّذي نَسْتَخْرِجُهُ مِن الحيتانِ يَعْتَمِدُ عَلى بَراعَتِهِمْ . وَلَكِنَّ الرِّجالَ الَّذينَ يَقومونَ بِعَمَلِيَّةِ التَّجْديفِ في القَوارِبِ لا يُمْكِنُ إغْفالُ أهَمِّيَّتِهِم البالِغَةِ أيْضًا . »

قُلْتُ : « لَقَدْ سَمِعْتُ أصْواتًا غَريبَةً آتِيَةً مِنْ داخِلِ السَّفينَةِ ، وَيَبْدو كَما لَوْ كانَ هُناكَ رِجالٌ في باطِنِها وَلَكِنَّ عُيونَنا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِم . »

وَهُنا تَذَكَّرْتُ وَقْعَ الخُطُواتِ الَّتي سَمِعْتُهُ بِالقُرْبِ مِن السَّفينَةِ في حَزيرَةِ نانْتوكيت قَبْلَ الإقْلاعِ .

قالَ كويكْوغ وَهُوَ يَنْظُرُ إلَيَّ . « وَأنا أيْضًا سَمِعْتُ هَذِهِ الأصْواتَ وَلا أفْهَمُ لَها مَعْنًى . لا بُدَّ مِنْ وُجودِ شَيْءٍ غامِضٍ هُنا . »

وَأشارَ كويكْوغ إلى قارِبٍ إضافِيٍّ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ وَقالَ . « إنَّ البَحَّارَةَ يَقولونَ إنَّهُ قارِبُ الرُّبّانِ . وَلا أعْلَمُ سَبَبًا لِوُجودِهِ هُنَكَ ؛

فَلَيْسَ مِنَ المألوفِ أنْ يُخَصَّصَ لِلرُّبّانِ قاربٌ لِلصَّيْدِ ، فَإنَّ رَبابِنَةَ السُّفُنِ عادَةً لا يُعادِرونَ سُفُنَهُمْ لِصَيْدِ الحيتانِ .»

الفصل التاسع

ظُهورُ الحوتِ الأبْيَض

يوجَدُ عَلى الدَّوامِ عِنْدَ قِمَّةِ صاري السَّفينَةِ مُراقِبٌ يَقومُ بِمُهِمَّةِ الاسْتِطْلاعِ وَمُراقَبَةِ ظُهورِ الحيتانِ . ويَتناوبُ البَحّارَةُ هَذا العَمَلَ ، كُلٌّ في دَوْرِهِ مُدَّةَ ساعَتَيْنِ .

وَفي ظِلِّ الجَوِّ الدّافِئِ كانَتْ نَوْبَةُ المُراقَبَةِ عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري عَمَلاً سَعْتُ عَلى الابْتِهاجِ وَالاسْتِمْتاعِ ، حَيْثُ يَقِفُ المُراقِبُ عَلى ارْتِفاعِ ثلاثينَ مِتْرًا فَوْقَ سَطْحِ السَّفينَةِ ، يُشْرِفُ عَلى مِساحَةٍ شاسِعَةٍ مِنَ البَحْرِ .

كَذَلِكَ تَمْتازُ هَذِهِ المُهِمَّةُ أيْضًا بِعَدَمِ وُجودِ أيَّةِ مَتاعِبَ ، حَيْثُ لا يَسْمَعُ المُراقِبُ أيَّةَ أخْبارٍ ، وَلَيْسَ هُناكَ فُرْصَةٌ لِجِدالٍ أوْ عِراكٍ مَعَ أحَدٍ ، وَلا حاجَةَ بِهِ لِلتَّفْكيرِ في النُّقودِ أوْ في وَجَباتِ الطَّعامِ ، وَلا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّرْكيزِ عَلى مُراقَبَةِ الحيتانِ فَحَسْبُ . وَتَنْحَصِرُ الأوامِرُ

المُكَلَّفُ بِتَنْفيذِهَا في الحِرْصِ عَلى القِيامِ بِمُراقَبَةٍ صارِمَةٍ دائِمَةٍ ، وَإطْلاقِ صَيْحَةٍ عالِيَةٍ في حالَةِ ظُهورِ أَحَدِ الحيتانِ .

ماذا كانَ يَفْعَلُ الرُّبّانُ آخاب ؟ كانَ يَجْلِسُ كُلَّ يَوْمٍ بِمُفْرَدِهِ عاكِفاً عَلى دِراسَةِ خَرائِطِهِ ، باحِثاً عَنْ أَفْضَلِ الأَماكِنِ لاصْطِيادِ الحوتِ الأَبْيَضِ ، الَّذي يَتَحَرَّقُ شَوْقاً لِلظَّفَرِ بِهِ والانْتِقامِ مِنْهُ كانَ عَلى دِرايَةٍ تامَّةٍ بِحَرَكاتِ المَدِّ وَالجَزْرِ في البِحارِ ، وَبِاسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَتَنَبَّأَ بِتَحَرُّكاتِ الأَسْماكِ الَّتي تَتَعَدَّى عَلَيْها الحيتانُ ، كَما كانَ يَعْلَمُ أَنَّ الحيتانَ تُهاجِرُ كالطُّيورِ بِطَريقَةٍ مُنْتَظِمَةٍ في رِحْلاتٍ عَبْرَ البِحارِ .

وَبَعْدَ ظُهْرِ يَوْمٍ حارٍّ كانَتِ السَّماءُ فيهِ مُلَبَّدَةً بِالسُّحُبِ ، طَرَقَ سَمْعي صَوْتٌ غَريبٌ ، وَحانَتْ مِنّي الْتِفاتَةٌ نَحْوَ أَعْلى السَّفينَةِ ؛ فَرَيْتُ تاشْتيغو عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري يَقومُ بِالمُراقَبَةِ ، مائِلاً بِجِسْمِهِ في لَهْفَةٍ إلى الأَمامِ ، مُشيراً بِيَدِهِ المُمْتَدَّةِ إلى أَبْعَدِ مَدًى ، مُرَدِّداً صَيْحَتَهُ بِصَوْتٍ عالٍ عَجيبٍ : « هُناكَ تَظْهَرُ الحيتانُ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! هُناكَ ! هُناكَ ! »

« أَيْنَ ؟ »

« هُناكَ نَحْوَ الجَنوبِ ، عَلى مَسافَةِ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ تَقْريباً ،

حَيْثُ يَظْهَرُ أَكْثَرُ مِنْ واحِدٍ مِنْها . »

وَفي لَمْحِ البَصَرِ انْدَفَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا لإعْدادِ قَوارِبِ الصَّيْدِ الثَّلاثَةِ ، الَّتي أَخَذَتْ تَتَأَرْجَحُ مُعَلَّقَةً فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ ، وَبَحّارَتُها يُلْقونَ أَنْفُسَهُمْ بِداخِلِها .

وَفَجْأَةً انْطَلَقَتْ صَيْحَةُ تَعَجُّبٍ في السَّفينَةِ ، وَاسْتَدارَ كُلُّ فَرْدٍ ناظِراً إلى الرُّبّانِ آخاب وَخَمْسَةِ رِجالٍ كَالأَشْباحِ السَّوْداءِ تُحيطُ بِهِ ، لا يَدْري أَحَدٌ مِنّا مِنْ أَيِّ مَكانٍ خَفِيٍّ ظَهَروا ! وَهُنا تَذَكَّرْتُ وَقْعَ الأَقْدامِ الغَريبَةَ وَالضَّجَّةَ الَّتي سَمِعْتُها مِنْ قَبْلُ .

قادَهُمْ آخاب فَوْراً إلى قارِبِهِ ، وَبَدا واحِدٌ مِنْهُمْ كَما لَوْ كانَ قائِدَهُمْ ، يَعْلو رَأْسَهُ شَعْرٌ أَبْيَضُ . وَطَنَنْتُ بِسَبَبِ لَوْنِ بَشَرَتِهِ أَنَّهُ مِنْ مُواطِني إحْدى جُزُرِ المُحيطِ الهادي . وَبَيْنَما نَحْنُ ناظِرونَ إلَيْهِمْ صاحَ الرُّبّانُ : « هَلْ أَنْتُمْ مُسْتَعِدُّونَ ، يا فَيْض للّهِ ؟ »

أَجابَ الرَّجُلُ ذو الشَّعْرِ الأَبْيَضِ : « عَلى أَتَمِّ اسْتِعْدادٍ . »

أَصْدَرَ الرُّبّانُ أَوامِرَهُ : « أَنْزِلوا القَوارِبَ ! هَلْ تَسْمَعونَ ؟ انْطَلِقوا بِها إلى البَحْرِ ! » وَأَبْحَرَتِ القَوارِبُ الثَّلاثَةُ بَعيداً عَنِ السَّفينَةِ وَرَكِبَ آخاب القارِبَ الرّابِعَ مَعَ الرِّجالِ الخَمْسَةِ الغُرَباءِ ، الَّذينَ أَخَذوا يُجَدِّفونَ مُنْطَلِقينَ في البَحْرِ .

أثارَ ظُهورُ هؤلاءِ الرِّجالِ الغُرَباءِ الشُّعورَ بِالخَوْفِ بَيْنَ بَحّارَةِ السَّفينَةِ . ولَمْ يُصَدِّقْني أحَدٌ عِنْدَما تَحَدَّثْتُ عَنِ الأصْواتِ الَّتي سَمِعْتُها وَكَأنَّها آتِيَةٌ مِنْ داخِلِ السَّفينَةِ . ولَكِنِ الآنَ ، تَذَكَّرَ كُلُّ فَرْدٍ مَا قُلْتُهُ عَنْها .

انْدَفَعَتِ القَوارِبُ الأرْبَعَةُ تَمْخُرُ عُبابَ الماءِ ، في مَشْهَدٍ رائِعٍ ، تَحْمِلُ فيهِ الأمْواجُ المُتَدَفِّقَةُ القَوارِبَ عالِيًا ثُمَّ تَدَعُها تَنْزَلِقُ إلى الأوْديَةِ المائِيَّةِ . واخْتَلَطَتْ صَيْحاتُ الرِّجالِ ، الَّذينَ يُوَجِّهونَ القَوارِبَ مَعَ صِياحِ الصَّيّادينَ وَالمُجَدِّفينَ . وَاتَّجَهَتِ السَّفينَةُ بِيكْوُد خَلْفَ قَوارِبِها تَنْشُرُ أشْرِعَتَها في مَهَبِّ الرِّياحِ ، أشْبَهَ بِطائِرٍ كَبيرٍ يَسيرُ وَراءَ صِغارِهِ لِيَحْمِيَها مِنْ أيِّ خَطَرٍ طارِئٍ . كُلُّ ذَلِكَ في مَنْظَرٍ طَبيعِيٍّ مُثيرٍ لِلْمَشاعِرِ .

كُنْتُ واحِدًا مِنَ البَحّارَةِ الَّذينَ يَقومونَ بِالتَّجْديفِ في قارِبِ ستارْبَك ، الَّذي صاحَ فينا مُشَجِّعًا : « جَدِّفوا بِعَزْمٍ شَديدٍ ، يا رِجالُ ؛ فَهُناكَ عاصِفَةٌ آتِيَةٌ ، وَلَدَيْنا فُسْحَةٌ مِنَ الوَقْتِ لاصْطِيادِ أحَدِ الحيتانِ قَبْلَ هُبوبِها . اضْرِبوا بِالمَجاديفِ في الماءِ بِقُوَّةٍ وَسُرْعَةٍ . »

هَبَّ كويكْوغ واقِفًا عَلى قَدَمَيْهِ ، قابِضًا عَلى حَرْبَتِهِ ، مُسْتَعِدًّا لِلْعَمَلِ في تَرَقُّبٍ وَحَذَرٍ ، مُدْرِكًا اقْتِرابَ اللَّحْظَةِ الحاسِمَةِ .

صاحَ ستارْبَك : « هُناكَ ! اقْذِفْ حَرْبَتَكَ ! »

وَانْدَفَعَتِ الحَرْبَةُ مِنْ يَدِ كويكْوغ مُحْدِثَةً صَوْتًا صاخِبًا مِنِ احْتِراقِها لِلْهَواءِ .

حَدَثَ عَقِبَ ذَلِكَ اضْطِرابٌ فَظيعٌ ، وَاصْطَدَمَ القارِبُ بِشَيْءٍ صَخْمٍ أُلْقِيَ بِجَميعِ مَنْ فيهِ مِنَ الرِّجالِ في البَحْرِ ، وَأفْلَتَ الحوتُ هارِبًا . وَامْتَلأَ القارِبُ بِالمِياهِ وَلَكِنَّهُ كانَ سَليمًا لَمْ يُصِبْهُ تَلَفٌ . واسْتَطَعْنا إنْقاذَ المَجاديفِ الَّتي كانَتْ تَطْفو فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ ، وَتَعَلَّقْنا جَميعًا بِالقارِبِ عائِدينَ إلَيْهِ .

خَيَّمَ الظَّلامُ عَلَيْنا في ذَلِكَ الحينِ ، وارْتَعَشَتْ أجْسادُنا مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ ، وَغَمَرَتِ المِياهُ المَوْجودَةُ داخِلَ القارِبِ أقْدامَنا وَسيقانَنا وَأرْجُلَنا عَنْ آخِرِها . وَتَمَلَّكَتْنا الحيرَةُ فَلَمْ نَعُدْ نَدْري أيَّ جِهَةٍ نَتَوَجَّهُ إلَيْها وَسْطَ هَذا الظَّلامِ الدّامِسِ .

وَبَعْدَ وَقْتٍ يَسيرٍ ، فُوجِئْنا بِالسَّفينَةِ بيكْوُد تَخْرُجُ عَلَيْنا مِنْ هَذا لظَّلامِ ، مُنْدَفِعَةً رَأْسًا نَحْوَنا انْدِفاعًا شَديدًا ، أدْرَكْنا مِنْهُ في هَلَعٍ وَرُعْبٍ – أنَّ مَنْ فَوْقَها مِنَ البَحّارَةِ لا يَرَوْنَ قارِبَنا عَلى الإطْلاقِ . وفي هَذا الوَقْتِ العَصيبِ ، لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا اخْتِيارٌ إلا أنْ نُلْقِيَ بِأنْفُسِنا جَميعًا في البَحْرِ ؛ أمَلاً في إنْقاذِ أرْواحِنا . وَعِنْدَما مَرَّتِ السَّفينَةُ

أمامَنا شاهَدْنا قارِبَنا الحالِيَ هَيْهاتَ ، ثُمَّ جَرَفَتْهُ السَّفينَةُ وَلَمْ نَرَهُ قَطُّ بَعْدَ ذَلِكَ .

ظَلَلْنا نَسْبَحُ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ السَّفينَةِ مُنادينَ عَلى مَنْ فيها مِنَ البَحّارَةِ ، حَتّى وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ أَصْواتُ اسْتِغاثَتِنا . وَأَخيراً تَمَ إِنْقاذُنا ، وَعُدْنا جَميعاً سالِمينَ إِلَيْها مَرَّةً أُخْرى . وَاتَّضَحَ أَنَّ السَّفينَةَ كانَتْ تَبْحَثُ عَنّا ، وَكادَتْ تَفْقِدُ الأَمَلَ تَقْريباً في العُثورِ عَلَيْنا في هَذا اللَّيْلِ البَهيمِ .

الفصل العاشر

ستاب يَصْطادُ حوتاً

مَكَثْنا في البَحْرِ أَسابيعَ عَديدَةً حَتّى اقْتَرَبْنا مِنْ رَأْسِ الرَّجاءِ الصّالِحِ في أَقْصى جَنوبِ أَفْريقْيا . وَالمَعْروفُ عَنْ هَذِهِ المَنْطِقَةِ مِنَ المُحيطِ أَنَّها مَكانٌ مُلائِمٌ لِصَيْدِ الحيتانِ . وَلِذَلِكَ كَثَّفْنا عَمَلِيّاتِ الاسْتِطْلاعِ وَالمُراقَبَةِ .

وَذاتَ يَوْمٍ صاحَ البَحّارُ القابِعُ عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري . وَلَكِنَّ صَيْحَتَهُ هذِهِ المَرَّةَ لَمْ تَكُنْ صَيْحَةَ تَبَيُّنٍ عَنِ اكْتِشافِ الحيتانِ ، بَلْ كانَتْ نِداءً حَرْبِيّاً يُسْتَخْدَمُ عِنْدَ تَلاقي السُّفُنِ في البِحارِ لِلتَّحِيَّةِ وَالسَّلامِ .

وَعَلى أَثَرِ ذَلِكَ عَلِمْنا أَنَّهُ رَأى أَشْرِعَةَ سَفينَةٍ أُخْرى ؛ فَأَخَذْنا نَتَطَلَّعُ إِلَيْها . وَبَيْنَما هِيَ تَقْتَرِبُ مِنّا رُوَيْداً رُوَيْداً اكْتَشَفْنا أَنَّها أَيْضاً سَفينَةٌ لِصَيْدِ الحيتانِ . ثُمَّ شاهَدْنا اسْمَها (طائِرُ البَحْرِ) . وَكانَ مَنْظَرُها غَريباً لِلْغايَةِ .

قالَ كويكْوغ : « هذهِ السفينةُ مَضى عَلَيْها في البَحْرِ مُدَّةٌ طَويلَةٌ لِلغايَةِ . »

سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ ؟ »

أجابَ : « انْظُرْ إلى أَمْلاحِ البَحْرِ البَيْضاءِ المُتَراكِمَةِ عَلى جَوانِبِها ، فَضْلاً عَنْ أَنَّها فَقَدَتْ مُعْظَمَ طِلائِها . »

قُلْتُ : « وَصاريها وَحِبالُها كَذَلِكَ كَأَنَّها أَشْجارٌ تَكْسوها الثُّلوجُ . »

وعِنْدَئِذٍ وَقَفَ الرُّبّانُ آخاب عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ مُرَدِّدًا النِّداءَ البَحْرِيَّ المُتَعارَفَ عَلَيْهِ لِلتَّحِيَّةِ ، ومُتَسائِلاً . « هَلْ صادَفْتُمُ الحوتَ الأَبْيَضَ الَّذي يُسَمُّونَهُ مُوبي دِك ؟ »

حِينَئِذٍ مَرَّتِ السَّفينَتانِ بِجاهِ بَعْضِهِما ، وأَجابَ صَوْتٌ مِنَ السَّفينَةِ الأُخْرى طائِرَ البَحْرِ - صائِحًا ولَكِنَّ كَلِماتِهِ وَصَلَتْ إِلَيْنا خافِتَةً ضَعيفَةً لِدَرَجَةِ أَنَّنا لَمْ نَتَبَيَّنْ لَها مَعْنًى .

صاحَ آخاب فينا : « إِنَّهُمْ في طَريقِ العَوْدَةِ إلى وَطَنِهِمْ : عَلى النَّقيضِ مِنَّا تَمامًا . » وأَتْبَعَ ذَلِكَ بِصَيْحَةٍ مِنْهُ إلى البَحّارِ الواقِفِ عَلى عَجَلَةِ القِيادَةِ بِسَفينَتِنا ، قائِلاً : « اسْتَمِرَّ في الإِبْحارِ ! اسْتَمِرَّ في الإِبْحارِ حَتّى وَلَوْ حَوْلَ العالَمِ بِأَسْرِهِ ! »

طَلَعَ عَلَيْنا اليَوْمُ التالي ، وَكانَ يَوْمًا هادِئًا شَديدَ الحَرارَةِ ، جَعَلَ مِنَ العَسيرِ عَلى البَحّارَةِ مُقاوَمَةُ الاسْتِسْلامِ لِلنُّعاسِ . وَفي هَذا اليَوْمِ حَلَّ دَوْري لِلْقِيامِ بِنُوبَتْجِيَّةِ الاسْتِطْلاعِ في أَعْلى الصّاري ، وَاضْطُرِرْتُ إلى أَنْ أَغْمِضَ عَيْنَيَّ تَفادِيًا لِمُواجَهَةِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ وبَريقِها ، وَظَلِلْتُ مُعَلَّقًا أَتَأَرْجَحُ في هَوادَةٍ ، كُلَّما اهْتَزَّ صاري السَّفينَةِ مَعَ الرِّياحِ . وَفَجْأَةً فَتَحْتُ عَيْنَيَّ لأَرى - عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ السَّفينَةِ تَمامًا - حوتًا ضَخْمًا ، فَوْقَ رَأْسِهِ كُتْلَةٌ بَيْضاءُ مِنَ الدُّهونِ ، ويَبْرُزُ مِنْ فَكِّهِ السُّفْلِيِّ أَسْنانٌ وأَنْيابٌ مُفْتَرِسَةٌ . وَكانَ يَسْبَحُ مُتَقَلِّبًا في الماءِ ، فَبَدا ظَهْرُهُ العَريضُ مُصيئًا لامِعًا في أَشِعَّةِ الشَّمْسِ كَلَوْحٍ مُسَطَّحٍ مِنَ الزُّجاجِ .

أَطْلَقْتُ صَيْحاتٍ عالِيَةً بِأَقْصى ما اسْتَطَعْتُ مِنْ صَوْتٍ ، فَخورًا بِأَنْ أَكونَ أَوَّلَ رَجُلٍ شاهَدَ الحوتَ : « هُناكَ ! ظَهَرَ الحوتُ الأَبْيَضُ ظَهَرَ بِأَنْفِهِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! »

وَسُرْعانَ ما هَبَّ النّائِمونَ مِنْ سُباتِهِمْ ، وَدَبَّ النَّشاطُ في السَّفينَةِ بِأَسْرِها ، ودَوّى في أَنْحائِها عِشْرونَ صَوْتًا يُرَدِّدونَ صِياحي . وَصاحَ الرُّبّانُ آخاب : « انْطَلِقوا بِقَوارِبِ الصَّيْدِ في البَحْرِ . »

وَلَكِنَّ الصِّياحَ المُفاجِئَ لِلْبَحّارَةِ كُلِّهِم ، في صَوْتٍ واحِدٍ ، كانَ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُخيفَ هذا الحوتَ . وَقَبْلَ أَنْ يَتِمَّ إِنْزالُ القَوارِبِ إلى

لبحرِ استدارَ مبتعداً عن السفينةِ ، ثُمَّ رفعَ ذيلَهُ الذي يُقدَّرُ طولُهُ بعشرةِ أمتارٍ – عالياً في الهواءِ ، وغطسَ في البحرِ مختفياً عنِ الأنظارِ ، كما لَوْ كانَ سفينةً ضخمةً انشقَّ لها البحرُ وابتلعتْها المياهُ .

انتظرْنا في لهفةٍ وقلقٍ ، حتّى ظهرَ الحوتُ أخيراً مرّةً أخرى بالقربِ منْ قاربِ ستاب ، سابحاً بسرعةٍ فائقةٍ ، رافعاً رأسَهُ فوقَ سطحِ الماءِ ؛ فأخذَ بحّارةُ القاربِ يُجدِّفونَ في جنونٍ متعقّبينَ إيّاهُ ، وعندما اقتربوا منهُ صاحَ ستاب : « تاشتيغو ! استعدَّ واصرْ بحربتكَ ! »

وانطلقتِ الحربةُ – في قوّةٍ وشدّةٍ – حيثُ أصابتِ الحوتَ واستقرّتْ في منتصفِ ظهرِهِ ، حتّى أصبحَ الحبلُ الواصلُ بينَها وبينَ القاربِ مشدوداً عنْ آخرِهِ . واستشاطَ الحوتُ المصابُ غضباً ، وأخذَ يسبحُ في سرعةٍ متزايدةٍ ، ساحباً القاربَ خلفَهُ في اندفاعٍ شديدٍ ، جعلَ منْ فيهِ منَ البحّارةِ يتشبّثونَ بكلِّ ما لديهِمْ منْ قوّةٍ وعزمٍ بجوانبِ القاربِ ، الذي مضى طائراً فوقَ سطحِ الماءِ ، حتّى أخذَ الحوتُ أخيراً يهدّئُ منْ سرعتِهِ قليلاً قليلاً .

صاحَ ستاب : « شدّوا الحبلَ بقوّةٍ ! فاشتركَ الرّجالُ جميعاً في جذبِ حبلِ الحربةِ ، حتّى تلامسَ لقاربُ وجسدُ الحوتِ واستندَ

ستاب على حافةِ القاربِ ، وعلى أبعدِ مدًى ممكنٍ أغمدَ خنجرَهُ المطوّيَ في أحدِ جوانبِ الحوتِ ، الذي أخذَ يتقلّبُ بشراسةٍ منْ ناحيةٍ إلى أخرى ، صارباً الماءَ بذيلِهِ والهواءَ برأسِهِ ؛ واستمرَّ يكافحُ مدّةً طويلةً والدّماءُ تنزفُ منهُ بغزارةٍ وتختلطُ بمياهِ البحرِ ، حتّى حارتْ قواهُ ، ورقدَ هذا المخلوقُ الضخمُ أخيراً ساكناً لا حراكَ بهِ

قالَ تاشتيغو للسيّدِ ستاب بعدَ أنِ انتهتِ المعركةُ : « ماتَ الحوتُ . »

ردَّ ستاب : « نعمْ . » ورفعَ عينيهِ منْ فمِهِ ووقفَ متأمّلاً في تفكيرٍ عميقٍ ناظراً إلى الحوتِ الهائلِ الذي نجحَ في اصطيادِهِ

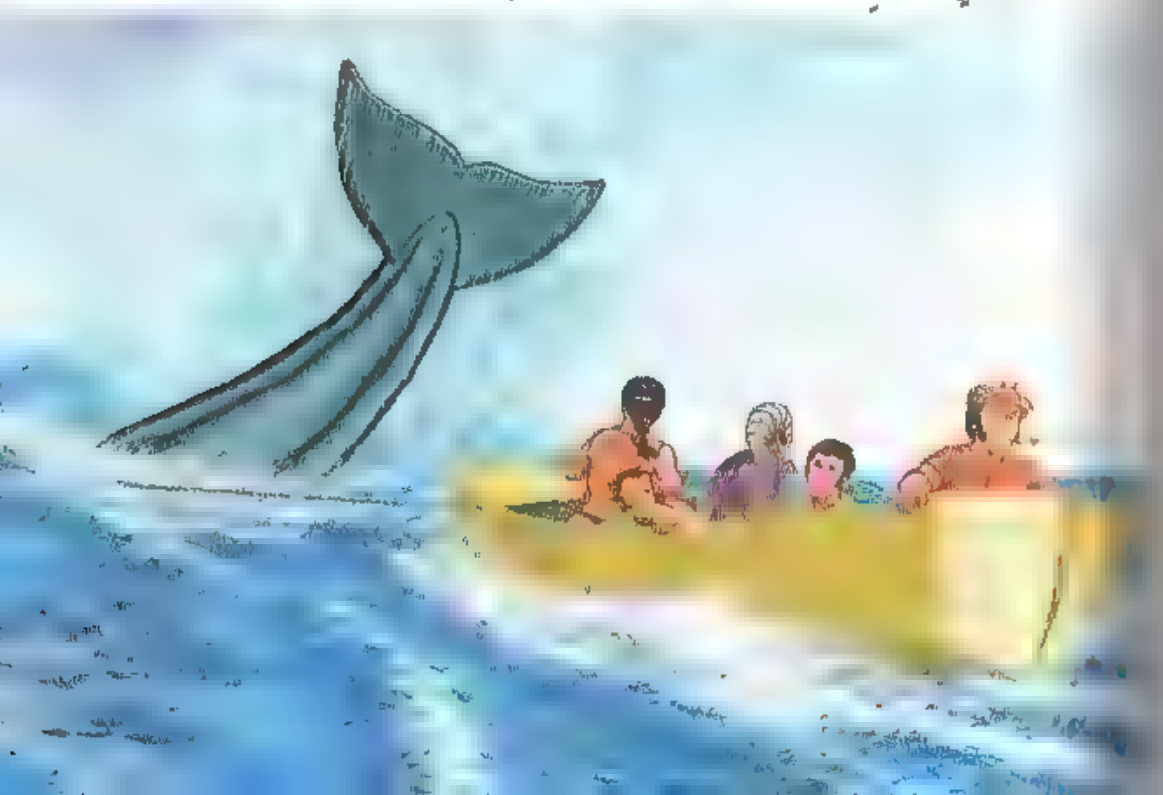

كانَ مَوْقِعُ قارِبِ ستاب — في هَذا الوَقْتِ — عَلى مَبْعَدَةٍ مِنَ السَّفينَةِ ، فاشْتَرَكَتْ قَواربُ الصَّيْدِ الثَّلاثَةُ في سَحْبِ حُثَّةِ الحوتِ الضَّخْمِ ، وَبَذَلَ بَحّارَتُها جُهْداً مُضْنِياً في دَفْعِ القَوارِبِ بِالتَّجْديفِ ، لِعَدَمِ هُبوبِ رِياحٍ مُواتِيَةٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَمَكَّنوا إلّا بِبُطْءٍ شَديدٍ مِنَ الوُصولِ إلى السَّفينَةِ بِيكْوُد .

وَفي الحالِ أَسْقَطَ البَحّارَةُ السَّلاسِلَ فَوْقَ جانِبِ السَّفينَةِ حَيْثُ قامَ بَعْضُهُمْ بِاسْتِخْدامِها في رَبْطِ الحوتِ ، وَالاحْتِفاظِ بِهِ مُلاصِقاً لَها .

وَكانَ لا بُدَّ مِنْ قِيامِ حارِسَيْنِ طَوالَ اللَّيْلِ بِمُطارَدَةِ أَسْماكِ القِرْشِ ، الَّتي تَجَمَّعَتْ حَوْلَ الحوتِ المَيِّتِ . وَاخْتيرَ كويكْوغ وَأَحَدُ البَحّارَةِ الآخَرينَ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ ، فَأَخَذا يَدْفَعانِ هَذِهِ الأَسْماكَ المُهاجِمَةَ بِحِرابٍ قاتِلَةٍ . وَلَوْلا ذَلِكَ لأَجْهَزَتْ عَلى جُثَّةِ الحوتِ مَعَ الصَّباحِ .

وَبِمُجَرَّدِ بُزوغِ فَجْرِ اليَوْمِ التّالي ، شَرَعْنا جَميعاً في اسْتِخْراجِ الزَّيْتِ مِنَ الحوتِ . أَوَّلاً أَحْضَرَ البَحّارَةُ فَوْقَ سَطْحِ السَّفينَةِ آلَةً يَتَدَلّى مِنْها حَبْلٌ في نِهايَتِهِ خُطّافٌ كَبيرٌ . ثُمَّ وَقَفَ ستاربك وَستاب عَلى لَوْحٍ خَشَبِيٍّ طَويلٍ فَوْقَ الحوتِ وَأَحْدَثوا فُتْحَةً في جَسَدِهِ لِتَرْكيبِ الخُطّافِ فيها . وَبَدَأَ البَحّارَةُ في تَشْغيلِ الآلَةِ وَهُمْ يَتَرَنَّمونَ بِالأَغاني

الشَّعْبِيَّةِ ؛ لِحَفْزِ هِمَمِهِمْ أَثْناءَ العَمَلِ . وَأَخَذَ الحَبْلُ يَلْتَفُّ حَوْلَ الآلَةِ وَيَقْصُرُ رُوَيْداً رُوَيْداً وَيَزْدادُ إِحْكاماً ، حَتّى أَصْبَحَ مَشْدوداً عَنْ آخِرِهِ ، وَعِنْدَئِذٍ بَدَأَ الخُطّافُ يَجْذِبُ كُتْلَةً مِنْ دُهونِ الحوتِ خارِجَ جَسَدِهِ ، حَتّى خَرَجَتْ كُلُّها في شَريحَةٍ طَويلَةٍ واحِدَةٍ أَشْبَهَ بِشَريحَةٍ مَنْزوعَةٍ مِنْ قِشْرَةِ بُرْتُقالَةٍ . وَأَخَذَ كُلٌّ مِنْ ستاربك وَستاب يُقَطِّعُ شَرائِحَ الدُّهونِ كُلَّما تَقَلَّبَ جَسَدُ الحوتِ في الماءِ . وَاسْتَمَرَّ العَمَلُ عَلى هَذِهِ الوَتيرَةِ حَتّى تَمَّ انْتِزاعُ كافَّةِ الشَّرائِحِ ، الَّتي أُنْزِلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إلى حُجْرَةِ الدُّهونِ ، الَّتي تَقَعُ بِداخِلِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ تَمَّ غَلْيُها وَتَجْميعُ زَيْتِ الحوتِ الثَّمينِ ، المَعْروفِ بِقيمَتِهِ العالِيَةِ .

الفصل الحادي عشر

كويكْوغ يُنْقِذُ حَياةَ تاشْتِيغُو

أَثْمَنُ شَيْءٍ فِي الحوتِ كُلِّهِ ما يَحْتَوِيهِ حِسْمُهُ مِنْ دُهونٍ ، وَما يَتَجَمَّعُ في رَأْسِهِ مِنْها . لِذَلِكَ عِنْدَما تَمَّ نَزْعُ شَرائِحِ الدُّهونِ مِنْ جِسْمِهِ ، فَصَلَ ستاربَك وَستاب رَأْسَ الحوتِ أَيْضاً .

بَعْدَ ذَلِكَ صاحَ ستاب : « فُكُّوا السَّلاسِلَ ، وَأَطْلِقوا جُثَّةَ الحوتِ . »

وَقَفَزَ الضَّابِطانِ إِلى السَّفِينَةِ عائِدَيْنِ إِلَيْها ، عَلى حِينَ أَرْخى البَحَّارَةُ السَّلاسِلَ ، فَتَلَقَّتْ مِياهُ البَحْرِ جُثَّةَ الحوتِ الضَّخْمَةَ ، وَحَمَلَتْهُ بَعِيداً عَنِ السَّفِينَةِ رُوَيْداً رُوَيْداً . وَكانَ يَبْدو في حَجْمِهِ الهائِلِ عِنْدَما بَدَأَتْ أَسْماكُ القِرْشِ وَكِلابُ البَحْرِ تَهْجُمُ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرى . وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى تَجَمَّعَ عَلى الحوتِ مَزِيدٌ مِنْ أَسْماكِ القِرْشِ تَنْهَشُ فِيهِ ، وَأَسْرابٌ مِنَ الطُّيورِ تَحومُ حَوْلَهُ . وَتَحْتَ السَّماءِ الزَّرْقاءِ

الصَّفِيَّةِ ، وَعَلى سَطْحِ البَحْرِ الهادِئِ تَحَرَّكَتْ هَذِهِ الكُتْلَةُ الضَّخْمَةُ الَّتِي فَقَدَتِ الحَياةَ ، مَعَ التَّيَّارِ حَتَّى اخْتَفَتْ عَنِ الأَنْظارِ عَلى المَدى البَعِيدِ

رَفَعَ البَحَّارَةُ رَأْسَ الحوتِ – وَهِيَ مُعَلَّقَةٌ في الخُطَّافِ – إِلى مُنْتَصَفِ المَسافَةِ بَيْنَ سَطْحِ البَحْرِ وَالسَّفِينَةِ . وَبَدَأَتْ عَمَلِيَّةُ اسْتِخْراجِ أَغْلى الزُّيوتِ وَأَعْظَمِها قِيمَةً ، مِنْ جُزْئِها العُلْوِيِّ . قَدْ يَحْتَوِي رَأْسُ هَذا النَّوْعِ مِنَ الحِيتانِ الضَّخْمَةِ عَلى خَمْسِمِائَةِ جالونٍ مِنَ الدُّهونِ ، وَكانَ هَذا الحوتُ ، الَّذِي اصْطادَهُ ستاب ، واحِداً مِنْها ، إِذْ يَبْلُغُ طُولُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ مِتْراً ، وَطُولُ الرَّأْسِ وَحْدَهُ سَبْعَةُ أَمْتارٍ

تَسَلَّقَ تاشْتِيغُو ، بِما يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ مَهارَةٍ وَخِفَّةِ حَرَكَةٍ تُضارِعُ القِطَطَ . وَتَقَدَّمَ عَلى رَأْسِ الحوتِ مُمْسِكاً بِدَلْوٍ وَخَنْجَرٍ حادٍّ في أَوَّلِ الأَمْرِ ، ثَقَبَ فُتْحَةً في الرَّأْسِ بَعْدَ قَطْعِ جِلْدِها السَّمِيكِ ، ثُمَّ أَنْزَلَ فِيها الدَّلْوَ مُسْتَخْدِماً عَصاً طَوِيلَةً وَحَبْلاً ، وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ حَدَبَ البَحَّارَةُ المُرابِطونَ عَلى سَطْحِ السَّفِينَةِ الحَبْلَ ، فَخَرَجَ الدَّلْوُ مِنْ فُتْحَةِ الرَّأْسِ مَمْلُوءاً بِالدُّهونِ ، حَيْثُ تَمَّ تَخْزِينُها في مَكانٍ خاصٍّ . وَتَكَرَّرَتْ هَذِهِ العَمَلِيَّةُ بِإِنْزالِ الدَّلْوِ داخِلَ الفُتْحَةِ وَحَدْبِهِ مِنْها ، حَتَّى تَمَّ تَفْرِيغُ الرَّأْسِ مِنْ كُلِّ ما بِهِ مِنْ دُهونٍ .

وَفَجْأَةً وَقَعَتْ حادِثَةٌ مُخِيفَةٌ مَلأَتْ قُلوبَنا رُعْباً وَذُعْراً ؛ إِذِ انْزَلَقَ

تاشْتيغُو المِسْكينُ ، بِمُجَرَّدِ جَذْبِ الدَّلْوِ ، وَسَقَطَ داخِلَ فُتْحَةِ الرَّأْسِ وَاخْتَفى فيها .

صاحَ داغو مُنْفَعِلاً : « ادْفَعوا الدَّلْوَ تِجاهَ الفُتْحَةِ ! »

وَسَرْعانَ ما وَقَعَتْ حادِثَةٌ أُخْرى في نَفْسِ الوَقْتِ ، زادَتِ المَوْقِفَ سُوءاً عَلى سوءٍ ؛ إِذْ أَفْلَتَ أَحَدُ لَحَّافَيْنِ الكَبيرَيْنِ ، اللَّذَيْنِ يَحْمِلانِ رَأْسَ الحوتِ ، فَهَوى جانِبٌ مِنَ الرَّأْسِ تِجاهَ البَحْرِ ، وَبَدا مِنَ النَّادِرِ أَنْ يَكونَ لِلَّحَّافِ الآخَرِ طاقَةٌ عَلى تَحَمُّلِ ثِقَلِ الرَّأْسِ كُلِّهِ .

وَعِنْدَما انْدَفَعَ داغو مُتَسَلِّقاً رَأْسَ الحوتِ ؛ مُحاوِلاً أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً مِنْ أَجْلِ إِنْقاذِ تاشْتيغُو ، صاحَ فيهِ النَّحَّارَةُ مُحَذِّرينَ وَمُنْذِرينَ : « اهْبِطْ بِسُرْعَةٍ ! اهْبِطْ ، وَإِلَّا واجَهْتَ نَفْسَ المَصيرِ ! »

في هَذِهِ اللَّحْظَةِ كانَ داغو قابِضاً عَلى الحَبْلِ بِيَدٍ واحِدَةٍ ، وَإِذا ما أَفْلَتَ الحَلَّافُ الثّاني مِنْ رَأْسِ الحوتِ فَلَنْ يَكونَ في وُسْعِهِ إِلَّا أَنْ يَزْداد تَشَبُّثاً بِالحَبْلِ ، وَيَعودَ بِهِ إِلى السَّفينَةِ وَلَكِنَّ داغو لَمْ يُلْقِ بالاً لِصِياحِ النَّحَّارَةِ ، وَدَفَعَ بِالدَّلْوِ داخِلَ فُتْحَةِ الرَّأْسِ ؛ أَمَلاً في أَنْ يَتَلَقَّفَهُ تاشْتيغُو وَيَتَعَلَّقَ بِهِ حَتّى يُمْكِنَ إِنْقاذُهُ .

صاحَ فيهِ النَّحَّارَةُ مَرَّةً أُخْرى في هَلَعٍ وَجَزَعٍ : « احْتَرِسْ ! احْتَرِسْ ! » وَإِذا بِالحَلَّافِ الثّاني يُفْلِتُ مِنَ الرَّأْسِ وَقَدْ ناءَ بِحَمْلِهِ ،

فَهَوى الرَّأْسُ الضَّخْمُ في البَحْرِ ، وَتَأَرْجَحَتِ السَّفينَةُ عَلى جانِبَيْها بَعْدَ أَنْ تَخَلَّصَتْ مِنْ هَذا الوَزْنِ الثَّقيلِ ، مُبْتَعِدَةً عَنْ مَوْقِعِها .

تَشَبَّثَ داغو بِالحَبْلِ وَأَخَذَ يَتَأَرْجَحُ مُتَدَلِّياً مِنْهُ ، تارَةً فَوْقَ رُءوسِ النَّحَّارَةِ ، وَتارَةً أُخْرى فَوْقَ البَحْرِ ، عَلى حينَ غاصَ الرَّأْسُ وَتاشْتيغُو بِداخِلِها في مِياهِ البَحْرِ إِلى القاعِ .

وَعَلى حينِ غِرَّةٍ فاجَأَ النَّحَّارَةَ شَبَحُ رَجُلٍ كانَ قابِضاً عَلى سَيْفٍ في يَدِهِ . إِنَّهُ كويكْوغ – صَديقي الشُّجاعُ – الَّذي وَثَبَ عَلى حافَةِ السَّفينَةِ ثُمَّ قَفَزَ في الماءِ .

وَهُنا انْدَفَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا إِلى جانِبِ لسَّفينَةِ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ لِيُشاهِدَ ما يَحْدُثُ .

مَرَّتْ لَحَظاتٌ ثِقالٌ وَلا أَثَرَ لِكويكْوغ وَلا لِرَأْسِ الحوتِ . وَدَفَعَ القَلَقُ بَعْضَ النَّحَّارَةِ فَقَفَزوا في أَحَدِ القَوارِبِ ، وَانْطَلَقوا بِهِ في البَحْرِ .

وَبَيْنَما كانَ داغو لا يَزالُ مُتَعَلِّقاً بِالحَبْلِ رائِحاً غادِياً بِهِ ، صاحَ بَغْتَةً : « هـ هُما قَدْ ظَهَرا هُناكَ ! هُما الاثْنان ! » فَانْطَلَقَتْ صَيْحَةُ فَرَحٍ مِنْ أَعْماقِ الرِّجالِ ، وَصَلَتْ إِلى عَنانِ السَّماءِ . وَأَخَذوا يُحَمْلِقونَ مَشْدوهينَ غَيْرَ مُصَدِّقينَ .

طَهَرَ كويكْوغ يشُقُّ الماءَ في قُوَّةٍ وعَزْمٍ ، حارا تاشْتِيغُو مِنْ شَعْرِهِ الطَّويلِ ، حَتَّى إذا وَصَلا إلى القاربِ رَفَعَهُما البَحَّارَةُ وَهُما في حالَةٍ يُرْثى لَها مِنَ الصَّعْفِ والوَهَنِ ، لِدَرَجَةِ أَنَّ تاشْتِيغُو لَمْ يَسْتَرِدَّ أَنْفاسَهُ إلّا بَعْدَ وَقْتٍ طَويلٍ ، أَمّا كويكْوغ فَقَدْ بَدا عَلَيْهِ الإعْياءُ والإجْهادُ الشَّديدُ .

تَجَمَّعَ البَحَّارَةُ حَوْلَ كويكْوغ فَوْرَ وُصولِهِ إلى السَّفينَةِ . وَسَأَلْتُهُ في لَهْفَةٍ . « كَيْفَ أَنْقَذْتَهُ ؟» وقَدْ كُنّا جَميعًا نَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِسَماعِ إجابَةٍ لِهَذا السُّؤالِ .

أَجابَ كويكْوغ : « قَطَعْتُ أَحَدَ حابِلَيْ رَأْسِ الحوتِ بِسَيْفي البَتّارِ ، وَثَقَبْتُ بِالقُرْبِ مِنْ قاعِها فُتْحَةً غَمَسْتُ ذِراعي بِداخِلِها ، وَلِحُسْنِ حَظّي أَحْسَسْتُ بِشَعْرِ تاشْتِيغُو ، فَجَذَبْتُهُ إلى الحارِجِ بِكُلِّ ما اسْتَطَعْتُ مِنْ قُوَّةٍ »

هَذِهِ المُغامَرَةُ العَجيبَةُ قَدْ تَبْدو مُسْتَحيلَةً ، لا يُصَدِّقُها عَقْلُ بَعْضِ الرِّجالِ ، الَّذينَ لَمْ يُتِحْ لَهُمْ فُرْصَةُ الإبْحارِ في سَفينَةٍ لِصَيْدِ الحيتانِ . والأَمْرُ لا يَعْدو أَنْ يَكونَ قِصَّةَ رَجُلٍ شُجاعٍ جَسورٍ ، أَقْدَمَ – في تَضْحِيَةٍ وَإخْلاصٍ – عَلى إنْقاذِ حَياةِ تاشْتِيغُو ، وَساعَدَهُ الحَظُّ عَلى تَحْقيقِ هَذِهِ المُعْجِزَةِ . وَلَكِنْ أَحْيانًا ، حَتّى تاشْتِيغُو نَفْسُهُ ، مِنَ العَسيرِ عَلَيْهِ أَنْ يُصَدِّقَ هَذا الحَظَّ السَّعيدَ لِذي واتاهُ .

الفصل الثاني عشر

مَعْلوماتٌ عَنِ الحِيتان

قَبْلَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ لَمْ تَسْمَحْ لِيَ الظُّروفُ قَطُّ بِمُشاهَدَةِ الحوتِ عَنْ قُرْبٍ . لَكِنَّ هَذِهِ المُغامَراتِ الأخيرَةَ أثارَتْ في نَفْسي عَزيزَةَ الفُصولِ وَحْبَ الاسْتِقْصاءِ ؛ حَتَّى أتَعَرَّفَ عَلى هَذِهِ المَخْلوقاتِ الضَّخْمَةِ ، الَّتي يَنْحَصِرُ صَميمُ عَمَلِنا في اصْطِيادِها .

بَعْدَ حوتِ ستاب لَمْ نَرَ حوتاً آخَرَ طَوالَ أسْبوعَيْنِ أوْ ثَلاثَةٍ ، تَوَفَّرَ لَدَيَّ خِلالَها وَقْتٌ كافٍ لِلتَّفْكيرِ فيها .

أوَّلُ سِمَةٍ مِنْ سِماتِ الحوتِ هِيَ ما يَنْفُثُهُ عادَةً مِنْ رَذاذٍ ، وأعْتَقِدُ أنَّ كافَّةَ الحيتانِ تَتَمَيَّزُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مُنْذُ بَدْءِ الخَليقَةِ ، وَأنَّ الصَّيَّادينَ رُبَّما مُنْذُ مِئاتِ السِّنينَ يُراقِبونَ هَذا الرَّذاذَ المُتَدَفِّقَ مِنْها وَيَعُدّونَهُ دَليلاً واضِحاً عَلى ظُهورِ الحيتانِ .

ولَكِنَّ ثَمَّةَ سُؤالاً واحِداً لا يَزالُ في حاجَةٍ إلى إجابَةٍ مُحَدَّدَةٍ

قاطِعَةٍ : هَلِ الحيتانُ تَنْفُثُ ماءً أمْ هَواءً فَقَطْ ؟

يَعْرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنّا أنَّ الأسْماكَ تَقْضي طيلَةَ عُمْرِها تَحْتَ الماءِ ، وَلا حاجَةَ بِها أبَداً إلى دَفْعِ رُءوسِها فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ؛ طَلَباً لاسْتِنْشاقِ الهَواءِ . وَلَكِنَّ الحوتَ لا يُعْتَبَرُ مِنْ فَصيلَةِ الأسْماكِ ، إنَّهُ يَنْتَمي إلى الحَيَواناتِ الَّتي تَعيشُ في البِحارِ . فَإنَّ أنْثى الحوتِ تُرْضِعُ صِغارَها اللَّبَنَ كَما تَفْعَلُ بَقِيَّةُ الحَيَواناتِ . وَتَسْتَطيعُ الحيتانُ المَعيشَةَ فَقَطْ عَنْ طَريقِ تَنَفُّسِ الهَواءِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

وَذاتَ يَوْمٍ بَيْنَما كُنّا نَجْلِسُ – أنا وَكويكْوغ – عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ يَتَنَفَّسُ الحوتُ مَعَ أنَّ فَمَهُ عالِباً ما يَكونُ تَحْتَ لماءِ عَلى الأقَلِّ بِثَلاثَةِ أمْتارٍ ؟»

أجابَ كويكْوغ : « إنَّهُ لا يَتَنَفَّسُ عَنْ طَريقِ فَمِهِ . بَلْ يَتَنَفَّسُ عَنْ طَريقِ فُتْحَةٍ في قِمَّةِ رَأْسِهِ تُسَمّى « فُوَّهَةَ التَّنَفُّسِ » . وَعِنْدَما يَتَنَفَّسُ فَإنَّنا نَسْتَطيعُ أنْ نَرى هَذِهِ الفُوَّهَةَ وَما يَنْفُثُهُ مِنْها ، وَحينَئِذٍ نَصيحُ قائِلينَ : « هُناكَ ظَهَرَ الحوتُ ! ظَهَرَ بِأنْفِهِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ !» »

« إذاً ، كَمْ مَرَّةً يَحْتاجُ فيها الحوتُ إلى الصُّعودِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ طَلَباً لِلتَّنَفُّسِ ؟»

« إنَّهُ يَسْتَنْشِقُ كَمِّيَّةً مِنَ الهَواءِ تَكْفيهِ مُدَّةَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ .

وَيَسْتَطِيعُ بِذَلِكَ أَنْ يَمْكُثَ تَحْتَ الماءِ طِيلَةَ هَذِهِ المُدَّةِ ، ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَصْعَدَ بَعْدَ ذَلِكَ لِعَمَلِيَّةِ اسْتِنْشاقٍ أُخْرى . وَقَدْ تَعَوَّدَ أَنْ يَظْهَرَ عَلى سَطْحِ الماءِ في أَوْقاتٍ مُنْتَصِمَةٍ . وَلَكِنَّهُ إِذا شَعَرَ بِمُطارَدَةِ الصَّيَّادِينَ فَإِنَّهُ يَهْبِطُ إِلى أَعْماقِ البَحْرِ ، وَقَبْلَ ذَلِكَ قَدْ لا يَكونُ لَدَيْهِ إِلّا وَقْتٌ يَسيرٌ فَقَطْ لأَخْذِ نَفَسٍ قَصيرٍ . وَغالِباً ما يَصْعَدُ مَرَّةً أُخْرى لإِتْمامِ عَمَلِيَّةِ التَّنَفُّسِ ، بِمُجَرَّدِ ما يَقْدِرُ عَلى ذَلِكَ .»

بَعْدَ هَذِهِ المَعْلوماتِ الجَديدَةِ الَّتي عَرَفْتُها عَنِ الحيتانِ لأَوَّلِ مَرَّةٍ ، سَأَلْتُهُ أَخيراً : « هَلْ يَنْفُثُ الحوتُ ماءً أَمْ هَواءً ؟»

أَجابَ كويكْوع : « لا أَحَدَ يَعْرِفُ بِالضَّبْطِ ، ولكِنَّني سَمِعْتُ شَيْئاً عَجيباً . فَإِذا كُنْتَ قَريباً جِدًّا مِنْهُ وَتَصادَفَ دُخولُ الرَّذاذِ المُتَدَفِّقِ مِنْهُ في عَيْنَيْكَ ، فَإِنَّهُ يُصيبُكَ بِفُقْدانِ البَصَرِ . وَلِذَلِكَ ، فَمِنَ الحِكْمَةِ عَدَمُ الاقْتِرابِ مِنْهُ وَالحِرْصُ عَلى الابْتِعادِ عَنْهُ بِمَسافَةٍ مُناسِبَةٍ .»

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ ، كُنَّا نُبْحِرُ في ضَوْءِ الشَّمْسِ ، وَفَجْأَةً صاحَ مُراقِبُ الاسْتِطْلاعِ : « هُناكَ طَهَرَ الحوتُ ! طَهَرَ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ !»

انْدَفَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنَّا إِلى مَكانِهِ في انْتِظارِ صُدورِ الأَوامِرِ ، وَعَلى أَتَمِّ اسْتِعْدادٍ لِتَنْفيذِها في حَماسٍ دافِقٍ . وَاشْرَأَبَّتْ أَعْناقُنا مُتَطَلِّعَةً إِلى

البَحْرِ ، حَيْثُ شاهَدْنا مَجْموعَةً مِنَ الحيتانِ تُشَكِّلُ نِصْفَ دائِرَةٍ ، نَفَثَتْ كُلُّ واحِدٍ مِنْها تَيّاراً نَفّاثاً ، يَصْعَدُ عالِياً في الهَواءِ بِانْدِفاعٍ شَديدٍ .

انْطَلَقَتْ سَفينَتُنا ، ناشِرَةً كامِلَ أَشْرِعَتِها ، تَتَعَقَّبُ هَذِهِ المَجْموعَةَ مِنَ الحيتانِ ، الَّتي تَفَرَّقَتْ في كُلِّ الاتِّجاهاتِ في ارْتِجاجٍ واضْطِرابٍ .

هُنا كانَتْ صَيْحَةُ الرُّبّانِ : « انْطَلِقوا بِالقَوارِبِ وَراءَها !»

اتَّجَهَ كُلُّ قارِبٍ في إِثْرِ أَقْرَبِ الحيتانِ مِنْهُ ، خارِجَ نِطاقِ تَجَمُّعِها ، بَعْدَ أَنْ تَباعَدَتْ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ

أَطْلَقَ كويكْوع حَرْبَتَهُ وَدَوّى صَفيرُها في الهَواءِ حَتّى أَصابَتْ أَحَدَ الحيتانِ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَقْتُلْهُ ؛ فَهاجَ وَماجَ وَنَفَرَ سابِحاً في ثَوْرَةٍ عارِمَةٍ ، ساحِباً القارِبَ خَلْفَهُ ، حَتّى وَصَلَ بِنا في وَسْطِ مَجْموعَةٍ أُخْرى مِنَ الحيتانِ ، كَأَنَّهُ يَحْتَمي بِها مِنّا .

وَقَعْنا في مَأْزِقٍ خَطيرٍ ، وَتَعَرَّضْنا لِبَطْشِ هَذِهِ المَخْلوقاتِ الخائِفَةِ ، الَّتي تَحومُ حَوْلَنا في ذُعْرٍ وَفَزَعٍ حاوَلْنا السَّيْرَ بِقارِبِنا بَيْنَها وَلَكِنَّ أَجْسامَها الضَّخْمَةَ كانَتْ تَضْغَطُ عَلَيْنا بِشِدَّةٍ ؛ مُعْتَرِضَةً طَريقَنا . وَفي ظِلِّ هَذا المَوْقِفِ المُضْطَرِبِ تَمَكَّنَ الحوتُ المُصابُ بِحَرْبَةٍ

كويكوغ أنْ يُحرِّر نفسَهُ ، ويعود بالفرار فرحًا بالنجاة . ومكثْنا وسْطَ هذا الحشْدِ الهائلِ من الحيتان ، وتساءلْتُ في يأسٍ عمَّا إذا كانَ لدَيْنا فُرْصةٌ للخلاص ممَّا نحنُ فيه . وظلَلْنا نترقَّبُ – في قلقٍ شديدٍ – حُدوثَ ثُغْرةٍ في هذا الجدارِ المتينِ منَ الحيتانِ المتكاتفةِ .

وعلى حينِ غِرَّةٍ ، حدَثَ شيْءٌ ما أثارَ خوْفَ الحيتانِ مرَّةً أخْرى ، ممَّا جعلَ المجْموعةَ كُلَّها تُعاوِدُ السَّاحةَ منْ جديدٍ حوْلَ قاربِنا .

صاحَ ستاربَك : « اطْردوها بعيدًا ضرْبًا بالمجاديفِ ! ها هيَ فجْوةٌ تنْفرجُ بيْنها ، الآنَ ، شُدُّوا المجاديفَ ، يا رِجالُ ! واضْربوا بها المياهَ ، وادْفعوا القاربَ إلى الأمامِ إنْقاذًا لأرْواحِكُمْ . »

خرَجْنا منْ هذهِ الأزْمةِ بسلامٍ ، ولاحظْنا أنَّ الحيتانَ تنْصرفُ بعيدًا عنَّا ، ولا فائدةَ منْ تعقُّبِها ؛ فقدْ كانَ القاربُ مُمْتلئًا بالماءِ ، وكُنَّا جميعًا في حالةٍ لا نُحْسدُ عليْها من التَّعبِ والإرْهاقِ . فمنْ ذلكَ العددِ الكبيرِ من الحيتانِ لمْ نظْفرْ إلا بحوتٍ واحدٍ ، وفرَّتْ جميعُ الحيتانِ الأخْرى هاربةً .

الفصل الثاني عشر
السَّفينةُ الفرَنْسيَّة

كانتِ الحياةُ فوْقَ سفينةِ صيْدِ الحيتانِ بالنِّسْبةِ لي تجْربةً عايةً في المعاناةِ . أحْيانًا نكونُ مشْغولينَ لأقْصى حدٍّ ، حيْثُ نتعقَّبُ حوتًا حتَّى نظْفرَ بهِ . إذا ما حالفَنا الحظُّ . خلالَ ساعةٍ أوْ ساعتيْنِ . ومعَ ذلكَ لا يعْدو هذا أنْ يكونَ بدايةً فقطْ للْعملِ الجادِّ ؛ فعلَيْنا تقْطيعُ واسْتخْراجُ شرائحِ الدُّهونِ منْ جسْمِه ، ثُمَّ غلْيُها وتفْريغُ رأسِ الحوتِ ممَّا يحْويهِ منْ دُهونٍ ، ونزْعُ أسْنانِه وعظامِ الفكِّ الطَّويلةِ ، الَّتي تُعدُّ أيْضًا أجْزاءً ثمينةً من الحوتِ . وتتطلَّبُ كافَّةُ هذهِ العمَليَّاتِ ثلاثةَ أوْ أرْبعةَ أيَّامٍ .

وفي أحْيانٍ أخْرى ، لمْ يكُنْ لدَيْنا – عالمًا – أيُّ عمَلٍ نقومُ بهِ ، اللَّهُمَّ إلا تنْظيفَ السَّفينةِ . أمَّا نوْبةُ المراقَبةِ الَّتي تسْتغْرقُ ساعتَيْنِ ونوْبةُ قيادةِ السَّفينةِ ، فكانتْ هذهِ أوْ تلْكَ تنْقضي على ما يبْدو بسُرْعةٍ فائقةٍ ، لا نشْعرُ بمُرورِ الوقْتِ خلالَها . وفي بعْضِ الأحْيانِ

كانَ عَلَيْنا أنْ نقومَ بإصْلاحِ الأشْرِعَةِ . ولَكِنّي أتذكّرُ السّاعاتِ الطِّوالَ ، الّتي كُنّا نقْضيها فقطْ في الجُلوسِ على سَطْحِ السّفينَةِ ، نتجاذَبُ أطْرافَ الحَديثِ . فإذا كانَ الجوُّ دافِئًا مُشْمِسًا فإنّنا نَسْتَمْتِعُ بأحاديثَ سارّةٍ مُبْهِجَةٍ على الدّوامِ ، حيْثُ يَقُصُّ عَلَيْنا مُعْظَمُ البَحّارَةِ أشْكالاً وألْوانًا مِنْ مُغامَراتِهِمْ ومُخطّراتِهِمْ مَعَ الحيتانِ .

اسْتَمَرّتِ السّفينَةُ بيكْوُد في البَحْرِ حَتّى وَصَلَتْ إلى المُحيطِ الهِنْديّ ، حَيْثُ كانَ الجوُّ حارًّا والسّماءُ مُلَبّدَةً بالسُّحُبِ في أغْلَبِ الأحْيانِ . في صِلِّ هذا النّوْعِ مِنَ الطّقْسِ لَمْ تَكُنْ أحْسَنُ القَصَصِ في اعْتِبارِنا - مُثيرَةً أو مُسَلّيَةً . وكُنْتُ أوَدُّ أنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ ما يُبَدِّدُ هذا المَلَلَ الّذي طَغى عَلَيْنا ، وَرُبّما كانَ البَحّارَةُ يُضْمِرونَ نَفْسَ الإحْساسِ ، بَدَلاً مِنْ هذِهِ الحياةِ الرّتيبَةِ الّتي كانَتْ تَسيرُ على وَتيرَةٍ واحِدَةٍ ، خِلالَ مُدَّةٍ طَويلَةٍ . وفِعْلاً حَدَثَ ما لَمْ يَكُنْ في الحُسْبانِ ، ولَكِنَّهُ في أوّلِ الأمْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا سارًّا على الإطْلاقِ .

انْدَلَعَتْ في الجَوِّ المُحيطِ بِنا رائِحَةٌ كَريهَةٌ ، هَبَّتْ عَلَيْنا مِنَ البَحْرِ .

قالَ ستاب : « إنّني أعْرِفُ هذِهِ الرّائِحَةَ . إنّها رائِحَةُ حوتٍ مَيِّتٍ »

وعِنْدَما انْقَشَعَتِ السُّحُبُ شاهَدْنا على بُعْدٍ ، سَفينَةً تَرْفَعُ على ارْتِها العَلَمَ الفَرَنْسِيَّ . ومَرْبوطٌ إلى جانِبِها أحَدُ الحيتانِ ، الّذي ..لُّ رائِحَتُهُ الكَريهَةُ على أنَّهُ مَيِّتٌ مُنْذُ أسْبوعٍ على الأقَلِّ ، أوْ رُبّما .. أسْبوعَيْنِ . ويَبْدو أنَّهُ ماتَ في البَحْرِ ميتَةً طَبيعِيَّةً ، فَبَعْضُ البَحّارَةِ ..رودُ على تَحَمُّلِ هذِهِ الرّائِحَةِ ؛ مِنْ أجْلِ الحُصولِ على دُهْنِ ..وتِ ، مَعَ أنَّ الدُّهونَ الّتي تُسْتَخْرَجُ مِنْ مِثْلِ هذا الحوتِ المَيِّتِ لَنْ تَكونَ جَيِّدَةً على الإطْلاقِ .

وعِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ السّفينَةِ الفَرَنْسِيَّةِ لاحَظْنا وُجودَ حوتٍ آخَرَ مَرْبوطٍ بِجانِبِها . وكانَ في نَفْسِ الحالَةِ السَّيِّئَةِ وتَفوحُ مِنْهُ رائِحَةٌ ..فونَةٌ .

وزادَ المَوْقِفَ سُوءًا هُدوءُ الرّياحِ ، ولا طاقَةَ لَنا بالفِرارِ مِنْ هذِهِ ..ائِحَةِ الكَريهَةِ ، الّتي رَكِمَتْ أنوفَنا وَصاقَتْ بِها صُدورُنا ، حَتّى كِرْهْنا تَنَفُّسَ الهَواءِ المَخْلوطِ بِها .

صاحَ رُبّانُنا بالتّحِيَّةِ المُتعارَفِ عَلَيْها بَيْنَ السُّفُنِ في البِحارِ ، مُسائِلاً عَمّا إذا كانَ على السّفينَةِ الفَرَنْسِيَّةِ أحَدٌ يَتَكَلَّمُ اللُّغَةَ الإنْجليزِيَّةَ .

أجابَ صَوْتٌ مِنَ السّفينَةِ الأخْرى : « نَعَمْ . »

« هَلْ شاهَدْتُمُ الحوتَ الأبْيَضَ ؟»

« أيُّ حوتٍ ؟»

« الحوتُ الأبْيَضُ – مُوبي دِك ، هَلْ رَأَيْتُموهُ ؟»

« لا ! لَمْ نَسْمَعْ قَطُّ عَنْ مِثْلِ هَذا الحوتِ .»

« لِمادا تَحْجزون تِلْكَ الحيتانَ بِجانِبِ السَّفينة ؟ أ لا تعْرِفونَ أنَّكُمْ لا تَسْتَطيعونَ الاسْتِفادة مِنْ دُهونِها ؟ وكَيْفَ تُطيقون احْتِمالَ هَذِهِ الرَّائِحَةِ العَفِنَةِ ؟»

« إنَّني أعْرِفُ ذلكَ جَيِّدًا ، ولَكِنَّ الرُّبَّان لا يُصدِّقُ ذلك . فهذه أوَّلُ رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ لَهُ عَلى سَفينةٍ لِصَيْدِ الحيتان . هَلْ تَسْمَحُ بِالحُضورِ إلى سَفينَتِنا لإقْناعِهِ ؟ رُبَّما يُصَدِّقُ ما تَقولُ .»

أخذ ستاب قاربًا وقادَهُ بِنَفْسِهِ إلى السَّفينة الأخْرى ، حَيْثُ وجدَ جميعَ البحَّارة الفرنْسيِّين يشْكون مُرَّ الشَّكْوى مِنْ هذه الرَّائحة الكريهة ، وكَثيرًا مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ تفشِّي الأمْراض بَيْنَهُمْ .

حضر الرُّبَّانُ الفَرَنْسيُّ لِمُقابَلَة ستاب ، وَقالَ الضَّابطُ الفَرَنْسِيُّ ، الَّذي يتحدَّثُ الإنْجليزيَّةَ ، لستاب . « مِنْ فضْلِك ! أرْجو أنْ تُقدِّم لَنا ما نَسْتَطيعُ مِنْ عَوْنٍ ؛ فإنَّ رُبَّان سفينتِنا لا يفْهَمُ أنَّ هَذه الرَّائحة

المُنبعثة من الحيتانِ الميِّتة تَحْملُ في طيَّاتِها خطرًا مُحقَّقًا »

قالَ ستاب : « ولكنَّهُ لا يتحدَّثُ اللُّغةَ الإنْجليزيَّةَ . ولِذلك سَنتَّفِقُ على تَنْفيذ خُطَّةٍ بَسيطَةٍ لِخِداعِهِ ، ولَكِنَّها سَتُساعِدُكُمْ كَثيرًا . سَأتحدَّثُ إلَيْك باللُّغة الإنْجليزيَّة ، وفي إمْكانِك أنْ تَتظاهر بأنَّني أقدِّمُ لكَ النَّصيحَةَ بِخُصوص هذا المَوْضوعِ . وَحينَئِذٍ تَسْتَطيعُ أنْ تُخْبِرَ رُبَّانَكَ بِاللُّغَةِ الفَرَنْسيَّة ما تُريدُ أنْ يَفْعَلَهُ .»

بدأ ضابطُ السَّفينة الفرنْسيَّة يُخاطِبُ رُبَّانَهُ باللُّغة الفرنْسيَّة ، مدَّعيًا أنَّهُ يَنْقُلُ إلَيْهِ حَديثَ ستاب : « إنَّهُ يقولُ ، بالأمْسِ فَقَطْ قابلَ سفينةً أخْرى ، ماتَ رُبَّانُها وضابطٌ مِنْ ضُبَّاطِها وستَّةٌ مِنْ بَحَّارَتِها ؛ بسبب إصابتِهِمْ جميعًا بِمَرَضٍ انْتَقَلَ إلَيْهِمْ مِنْ حوتٍ ميِّتٍ ، كانَ مربوطًا بسفينتِهِمْ »

عنْدما سمع الرُّبَّانُ ذلك بدتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ والاسْتِغْرابُ ، وقال: « أخْبِرْني بِمَزيدٍ مِن المَعْلوماتِ عَنْ هَذا الحادِثِ .»

قالَ الضَّابِطُ الفَرَنْسِيُّ لِستاب : « ماذا نَفْعَلُ الآنَ ؟»

أجاب ستاب : « حَسَنٌ ! إنَّهُ لا يفْهَمُ كَلِمَةً واحِدَةً مِمَّا أقولُ . والآنَ نظَرْتُ إلَيْهِ نَظْرَةً فاحِصَةً ، ولا أعْتَقِدُ في الحقيقَة أنَّهُ يَمْتَلِكُ المُناسِبَ ليكون قائِدًا لسفينةٍ على الإطْلاقِ »

وَهُنا قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ لِرُبّانِهِ كَأَنَّهُ يَنْقُلُ إِلَيْهِ كَلامَ ستاب : « إِنَّهُ يُخْبِرُني بِأَنَّ هَذِهِ الحيتانَ الميّتَةَ خَطيرَةٌ ، وَإِذا كُنّا نَخْشى عَلى أَرْواحِنا ، فَمِنَ الواجِبِ عَلَيْنا أَنْ نُطْلِقَ سَبيلَ هَذَيْنِ الحوتَيْنِ بَعيداً عَنِ السَّفينَةِ . »

لَمْ يَكَدِ الرُّبّانُ يَسْمَعُ هَذا الكَلامَ حَتّى جَرى إِلى الأَمامِ ، وَصاحَ في الحَارَةِ : « اقْطَعوا الحبالَ ، وَأَلْقوا الحوتَيْنِ في البَحْرِ . »

قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ لِستاب مُتَسائِلاً : « ماذا نَفْعَلُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ »

أَجابَ ستاب : « تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْبِرَهُ أَيْضاً أَنّي في حَقيقَةِ الأَمْرِ قَدْ خَدَعْتُهُ . »

قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ مُخاطِباً الرُّبّانَ مَرَّةً أُخْرى : « سَيِّدي ، إِنَّهُ يَقولُ بِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ الحَقَّةِ ، وَأَنَّهُ مَسرورٌ جِدًّا لأَنَّ الظُّروف قَدْ أَتاحَتْ لَهُ فُرْصَةً لِتَقْديمِ المُساعَدَةِ لَنا . »

عِنْدَئِذٍ طَلَبَ الرُّبّانُ الفَرَنْسِيُّ مِنْ ستاب أَنْ يتفضَّلَ بِتَناوُلِ كَأْسٍ مِنَ العَصيرِ مَعَهُ .

أَجابَ ستاب : « شُكْرًا جَزيلاً . وَأَرْجو أَنْ تُخْبِرَهُ بِأَنّي لا أَشْرَبُ مَعَ رَجُلٍ اشْتَرَكْتُ في خِداعِهِ ، وَأَنَّني يَجِبُ أَنْ أَعودَ إِلى سَفينَتي

لأن »

قالَ الضّابِطُ الفَرَنْسِيُّ لِرُبّانِهِ : « بِقَولُ إِنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ إِنْزالُ كافَّةِ القَوارِبِ في البَحْرِ ، واسْتِخْدامُها في جَذْبِ السَّفينَةِ بَعيداً عَنِ الحيتانِ الميّتَةِ ، حَيْثُ لا أَثَرَ لِرِياحٍ تَدْفَعُ الحوتَيْنِ بَعيداً عَنِ السَّفينَةِ . »

وَكانَ لَدى ستاب حَبْلٌ طَويلٌ في قارِبِهِ ، فَأَخْبَرَ الفَرَنْسِيّينَ أَنَّهُ سَيُعاوِنُهُمْ بِسَحْبِ أَصْغَرِ الحوتَيْنِ حَجْمًا ، بَعيداً عَنْ سَفينَتِهِمْ .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ يَسيرَةٍ ، بَدَأَتِ الرِّياحُ تَهُبُّ ، وَتَظاهَرَ ستاب بِأَنَّهُ سَيُطْلِقُ سَراحَ الحوتِ لِيَطْفُوَ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

الفصل الرابع عشر

اسْتِخْراجُ العَنْبَرِ مِنَ الحوت

لَمْ تَكَدِ السَّفينَةُ الفَرَنْسِيَّةُ تُبْحِرُ بَعيداً ، حَتّى أَسْرَعَ ستاب عائداً إلى الحوتِ المَيِّتِ ، وانْهَمَكَ يَحْفِرُ في حُثَّته بِحَنْجَرٍ طَويلٍ ، حتّى شَقَّ فُتْحَةً عَميقَةً .

وَفَجْأَةً صاحَ في بَهْجَةٍ عامِرَةٍ . « لَقَدْ وَجَدْتُهُ ! لَقَدْ عَثَرْتُ عَ أخيراً ! »

كانَتِ الرَّائِحَةُ الكَريهَةُ لا تَزالُ تُحيطُ بالحوت وَبِالمَنْطِقَةِ كُلِّها ولكنَّها أَصْبَحَتِ الآنَ مَمْزوجَةً بِرائِحَةٍ عَطِرَةٍ لِلْغايَةِ ، تَسُرُّ جَلالَها ، بَلْ تَكادُ تَتَغَلَّبُ عَلَيْها . وَفي الحالِ أَسْقَطَ ستاب الحَ وَدَفَعَ يَدَيْهِ داخِلَ الفُتْحَةِ ، وَأَخَذَ يَسْحَبُ حَفَناتٍ مِنْ مادَّةٍ تُشْ الصَّابونَ ، يَنْبَعِثُ مِنْها رائِحَةٌ جِدُّ مُنْعِشَةٍ .

قالَ ستاب : « إِنَّهُ العَنْبَرُ ، الَّذي يُعْطي رائِحَةً ضَيِّبَةً لأَشْياءَ كَثيرَةٍ ،

مِثْلِ الصَّابونِ وَالبودْرَةِ وَالمساحيقِ الأُخْرى ، وَلَهُ قيمَةٌ ثَمينَةٌ ، عَلى الأَخَصِّ في تُرْكيا ، حَيْثُ يَسْتَخْدِمُهُ المُواطِنونَ هُناكَ في طَهْيِ طَعامِهِمْ . »

هَذِهِ المادَّةُ العَطِرَةُ مِنَ العَنْبَرِ توجَدُ عادَةً في الحيتانِ المَريضَةِ فَقَطْ . وَكانَ ستاب يَعْرِفُ ذَلِكَ جَيِّداً عِنْدَما خَدَعَ البَحَّارَةَ الفَرَنْسِيِّينَ بِالتَّخَلِّي عَنِ الحوتَيْنِ المَرْبوطَيْنِ بِسَفينَتِهِمْ .

الفصل الخامس عشر

أخْبارٌ عَنِ الحوتِ الأبْيَض

واصَلْنا رِحْلَةَ الصَّيْدِ عَبْرَ المُحيطِ لأسابيعَ عَديدَةٍ ، كانَ خِلالَها الرُّبّانُ آخاب يَقِفُ كُلَّ يَوْمٍ بِساقِهِ المَصْنُوعَةِ مِنْ عِظامِ الحوتِ ، الَّتي اعْتادَ أنْ يَضَعَها في فُتْحَةٍ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، وَمِنْ وَقْتٍ لآخَرَ يُنادي رَجُلَ المُراقَبَةِ القابِعَ عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري ، مُتَسائلاً : « هلْ هُناكَ أيُّ دَليلٍ عَلى ظُهورِ الحوتِ الأبْيَضِ ؟ هَلْ شاهَدْتَ مُوبي دِك ؟»

وَلَكِنَّ الإجابَةَ كانَتْ دائِماً مُخَيِّبَةً لِلآمالِ . لا دَليلَ وَلا عَلامَةَ وَلا أدْنى إشارَةٍ أيًّا كانَ نَوْعُها ، تُشيرُ إلى ظُهورِ مُوبي دِك حَتّى الآنَ .

وَذاتَ يَوْمٍ مَرَّتْ عَلَيْنا سَفينَةٌ تَرْفَعُ العَلَمَ الإنْجليزِيَّ . وَرَأَيْنا رُبّانَها عَلى سَطْحِها . كانَ رَجُلاً وَسيماً يَرْتَدي مِعْطَفاً أزْرَقَ تَطيرُ إحْدى ذِراعَيْهِ في الهَواءِ مَعَ الرِّياحِ .

صاحَ آخاب بالتَّحِيَّةِ المَحْرِيَّة ، وسألَ كَعادَتِه : « هَلْ رَأَيْتُمْ حوتاً أبْيَضَ ؟»

أجابَ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ . « هَلْ ترى هذا ؟» وفَتَحَ صَدْرَ مِعْطَفِه ورَفَعَ ذِراعاً بَيْضاءَ اللَّوْنِ . وفي دَهْشَةٍ مِنّا جميعاً شاهَدْنا أنَّها مصْنوعَةٌ مِنْ عِظامِ الحوت ، وَفي نِهايَةِ هَذه الذِّراعِ قِطْعَةٌ مِنَ الخشَبِ عَلى هَيْئَةِ مِطْرَقَةٍ بَدلاً من اليد. وبحركةٍ لا شُعوريَّةٍ صاحَ آخاب عَلى الفَوْرِ : « أعِدُّوا قارِبي !» وَبَعْدَ دَقيقَةٍ واحِدَةٍ كانَ في طَريقِه إلى السَّفينَةِ الأخْرى ، وَبَحّارَتُهُ سُمْرُ البَشَرَةِ يُجَدِّفونَ بِقُوَّةٍ وَفُتُوَّةٍ ، عَلى حينِ قائِدُهُمْ ذُو الشَّعْرِ الأبْيَضِ يُوَجِّهُ دَفَّةَ القارِبِ .

رَحَّبَ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ بِآخاب تَرْحيباً حارًّا ، وَقَدَّمَ لَهُ التَّحِيَّةَ الواجِبَة ، وَمَدَّ لَهُ ذِراعَهُ الصِّناعِيَّةَ تَعْبيراً عَنْ مشاعِرِهِ الوُدِّيَّة .

صاحَ آخاب : « هكَذا نَتَلاقى ذِراعٌ وَساقٌ ! ذِراعٌ لَنْ يَتَسَرَّبَ إلَيْها الضَّعْفُ وَالوَهَنُ أبَداً ! وَساقٌ لَن تَسْتَطيعَ الجَرْيَ أبَداً ! أيْنَ الْتَقَيْتَ الحوتَ الأبْيَضَ ؟ وَمَتى ؟»

أشارَ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ إلى جِهَةِ الشَّرْقِ ، قائِلاً : « هُناكَ ! الْتَقَيْتُهُ في العامِ الماضي .»

« هَلْ هُوَ الَّذي انْتَزَعَ مِنْكَ تِلْكَ الذِّراعَ ؟»

« نَعَم هُوَ الَّذي بَتَرَ ذِراعي . هَلْ هُوَ الَّذي نَزَعَ ساقَكَ أَيْضاً ؟»

قالَ آخاب : « أَخْبِرْني ، كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ ؟»

« في ذَلِكَ الوَقْتِ لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ شَيْئاً عَنِ الحوتِ الأَبْيَضِ ، وذاتَ يَوْمٍ أَرْسَلْنا قَوارِبَنا لِصَيْدِ أَحَدِ الحيتانِ . وَفِعْلاً اصْطَدْنا وَحِداً مِنْها في الحالِ . وَفَجْأَةً انْشَقَّ قاعُ البَحْرِ عَنْ شَبَحٍ أَبْيَضَ كَبيرٍ — حُوتٍ ضَخْمٍ ذي رَأْسٍ وَظَهْرٍ في بَياضِ اللَّبَنِ ، وَيُغَطّي جِلْدَهُ كُلَّهُ آثارُ جُروحٍ كَثيرَةٍ .»

لَمْ يَتَمالَكْ آخاب نَفْسَهُ فَقاطَعَهُ صائِحاً : « إِنَّهُ هُوَ ! مُوبي دِك !»

اسْتَطْرَدَ الرُّبّانُ الإِنْجليزِيُّ قائِلاً : « وَهُناكَ عَدَدٌ مِنَ الحِراب مَعْرُوزَةٌ فيهِ .»

قاطَعَهُ آخاب مَرَّةً أُخْرَى : « أَجَلْ ، أَجَلْ . إِنَّها حِرابي الَّتي أَصَبْتُهُ بِها . وَلَكِنْ أَخْبِرْني بِالمَزيدِ عَمَّا حَدَثَ .»

قالَ الرُّبّانُ الإِنْجليزِيُّ « اصْبِرْ قَليلاً ، وَأَعْطِني فُرْصَةً لِلْحَديثِ . هَذا الحوتُ الهائِلُ انْدَفَعَ نَحْوَنا ، وَأَخَذَ يَقْرِصُ الحَبْلَ المَرْبوطَ بِالحَرْبَةِ الَّتي أَصابَتِ الحوتَ الآخَرَ ، كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُنْقِذَهُ مِمَّا .»

« نَعَمْ ! إِنَّني أَعْرِفُهُ تَماماً ! هَذِهِ إِحْدى خُدَعِهِ القَديمَةِ مِنْ أَجْلِ

إِطْلاقِ سَراحِ الحوتِ الآخَرِ .»

« إِنَّهُ أَضْخَمُ حوتٍ رَأَيْتُهُ في حَياتي كانَ سَبَباً في أَنْ انْدَلَعَتْ في نَفْسي رَغْبَةٌ مُلِحَّةٌ ، لَمْ أَشْعُرْ بِها مِنْ قَبْلُ ، لِلظَّفَرِ بِهِ كُنَّا عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ ، فَالْتَقَطْتُ حَرْبَةً وَأَطْلَقْتُها نَحْوَهُ بِكُلِّ ما أُوتيتُ مِنْ عَزْمٍ ، حينَئِذٍ دارَتِ الدُّنْيا بي ، وَأُظْلِمَتْ مِنْ حَوْلي ، فَقَدْ أَعْمَتْني مِياهُ البَحْرِ ، الَّتي لَطَمَتْ وَجْهي في انْدِفاعٍ شَديدٍ ، وَمَرَّ ذَيْلُهُ رَأْساً فَوْقَ رَأْسي ، ثُمَّ هَوى عَلى القارِبِ فَفَصَلَهُ جُزْأَيْنِ ، وَأَلْقى بِنا في الماءِ . وَلِكَيْ أَنْجُوَ بِنَفْسي مِنْ ضَرَباتِ ذَيْلِهِ العَنيفَةِ ، قَبَضْتُ عَلى الحَرْبَةِ الَّتي رَشَقْتُها فيهِ ، وَلَكِنَّهُ غاصَ في أَعْماقِ البَحْرِ وَعُصْتُ مَعَهُ وَطَوالَ تَشَبُّثي بِالحَرْبَةِ هابِطاً مَعَها إِلى القاعِ . أَحْدَثَتْ قَطْعاً عَميقاً عَلى صولِ ذِراعي حَتّى يَدي . عِنْدَئِذٍ حَمَلَتْني المِياهُ بَعيداً عَنْهُ ، بَعْدَ أَنْ مَزَّقَتِ الحَرْبَةُ ذِراعي ، وَصَعِدَتْ بي إِلى السَّطْحِ حَيْثُ وَجَدْتُ نَفْسي طافِياً فَوْقَها .»

لَمْ يُبْدِ آخاب أَيَّ اهْتِمامٍ بِما حَدَثَ لِذِراعِ الرُّبّانِ الإِنْجليزِيِّ ، قَدْرَ اهْتِمامِهِ وَتَرْكيزِ كُلِّ تَفْكيرِهِ وَمَشاعِرِهِ عَلى مُوبي دِك ، فَابْتَدَرَهُ مُتَسائِلاً : « وَماذا حَدَثَ لِلحوتِ الأَبْيَضِ ؟ هَلْ شاهَدْتَهُ مَرَّةً أُخْرى ؟»

« أَجَلْ رَأَيْتُهُ مَرَّتَيْنِ .»

« هَل استَطَعْتَ الإمْساكَ بِهِ ؟»

« لَمْ يَعُدْ لَدَيَّ أدْنى رَغْبَةٍ في القِيامِ بِمُحاوَلَةٍ أخْرى . أ لَمْ يَكُنْ كافِيًا فَقْدُ ذِراعٍ واحِدَةٍ ؟ وَماذا عَساىَ أنْ أفْعَلَ إذا ما فَقَدْتُ ذِراعِيَ الأخْرى ؟ لَقَدْ قَرَّرْتُ ألا أُقْدِمَ على أيَّةِ مُحاوَلَةٍ أخْرى بِصَيْدِ الحوتِ الأبْيَض . لَقَدْ نازَلْتُهُ مَرَّةً واحِدَةً انْتَهَتْ بِكارِثَةٍ وَعاهَةٍ مُسْتَديمَةٍ . وَهَذا يَكفي تَماماً ! حَقًّا ، إنَّني عالِمًا ما أعْتَقِدُ أنَّ الشُّهْرَةَ وَذُيوعَ الصِّيتِ سَتُتَوِّجُ رَأسَ الرَّجُلِ الَّذي يَقْتُلُ الحوتَ الأبْيَض . وَلَكِنْ مِنَ الأفْضَلِ أنْ نَتْرُكَ الحوتَ الأبْيَضَ وَشَأنَهُ . أ لا تُوافِقُني عَلى ذَلِكَ أيُّها الرُّبّانُ ؟» وَنَظَرَ في تَفْكيرٍ عَميقٍ إلى ساقِ آخاب الاصْطِناعِيَّةِ نَظْرَةً لَها أكْثَرُ مِنْ مَعْنًى .

« نَعَمْ ، رُبَّما . وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ سَيَجِدُ مَنْ يَظْفَرُ بِهِ وَيَقْضي عَلَيْهِ يَوْمًا ما . كَمْ مِنَ الزَّمَنِ انْقَضى مُنْذُ أنْ شاهَدْتَهُ آخِرَ مَرَّةٍ ؟ وَأيَّ جِهَةٍ كانَ يَقْصِدُها ؟»

وَقَبْلَ أنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ اسْتَدارَ آخاب بِحَرَكَةٍ سَريعَةٍ إلى رَئيسِ بَحّارَتِهِ ذي الشَّعْرِ الأبْيَضِ ، آمِرًا . « فَيْضَ اللّهِ ! أحْضِرْ قارِبي . سَأعودُ فَوْرًا إلى السَّفينَةِ .»

صاحَ الرُّبّانُ الإنْجليزِيُّ : « ماذا حَدَثَ ؟ ماذا دَهاكَ ؟»

وَهَمَسَ في أذُنِ فَيْضِ اللّهِ : « هَلْ أصابَ رُبّانَكَ مَسٌّ مِنَ الجُنونِ ؟» وَلَكِنَّ فَيْضَ اللّهِ وَضَعَ أصْبَعَهُ عَلى فَمِهِ ، وَلَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ .

رَجَعَ آخاب إلى قارِبِهِ ، وَجَدَّفَ بَحّارَتُهُ عائِدينَ إلى السَّفينَةِ بِسُكُوت

الفصل السادس عشر

أيُّها الرُّبَّانُ ! عَلَيْكَ أنْ تَكْبَحَ جِماحَ نَفْسِكَ

هُناكَ دائماً نَعْصُ المياه في الجُزْءِ السُّفْليِّ لِكُلِّ سَفينَةٍ شِراعِيَّةٍ ، وَلَكِنَّ المياه تجمَّعَتْ بكمِّيَّاتٍ كبيرَةٍ داخِلَ السَّفينَةِ بيكُوْد ، لأنَّها مَكَثَتْ في البَحْرِ مُدَّةً طَويلَةً لِذلِكَ قَرَّرَ الضَّبَّاطُ دائماً يَوْمَ نَزْحِها مِنْ قاعِ السَّفينَةِ . وَقَدْ لاحَظَ ستاربَك أنَّ هَذِهِ المياهَ قَدِ امْتَزَجَتْ بِزُيوتٍ هِيَ بِطَبيعَةِ الحالِ مِنْ زُيوتِ الحوتِ ؛ فَتَوَجَّهَ فَوْراً إلى الرُّبَّانِ اخاب لِيُفْضِيَ إلَيْهِ بهَذا النَّبَأِ الخَطيرِ ؛ إذْ إنَّ ذَلِكَ يَعْني أنَّ زُيوتَ الحوتِ تَتَسَرَّبُ مِنَ البَراميلِ الخَشَبِيَّةِ الكَبيرَةِ المَخْزونَةِ فيها .

لَمْ تَكُنِ السَّفينَةُ بِيكُوْد في ذلِكَ الحينِ بعيدَةً عنِ البابانِ ، وكانَ آخاب عاكِفاً عَلى دِراسَةِ خَرائِطِهِ . وَحينَ شَعَرَ بِاقْترابِ أحَدٍ مِنْهُ ، قالَ دونَ أنْ يَلْتَفِتَ إليه : « منْ هُناكَ ؟ اِرْجِعْ مِنْ حَيْثُ أتَيْتَ ! »

أجابَ ستاربَك : « إنَّهُ ستاربَك ، يا سَيِّدي الرُّبَّانَ . إنَّ الزُّيوتَ

المحْفوظَةَ في المَخْزَنِ تَنْسابُ مِنَ البَراميلِ ، وَلا بُدَّ مِنْ أنْ نَهْبِطَ إلَيْها لِفَحْصِها وَاكْتِشافِ حَقيقَةِ الأمْرِ . »

قالَ اخاب . « هَلْ يُمْكِنُ لِقيامِ بِهذِهِ العَمَلِيَّةِ الآنَ ؟ إنَّنا نوشِكُ على الوُصولِ إلى فُورْمُوزا ، وَعَلَيْكَ أنْ تُسْرِعَ بِتَنْفيذِها ، فَلَيْسَ في اسْتِطاعَتِنا أنْ نُضَيِّعَ أسْبوعاً في إصْلاحِ البَراميلِ . »

كانَتْ عَمَلِيَّةُ فَحْصِ كافَّةِ البَراميلِ عَمَلاً شاقّاً في غايَةِ الصُّعوبَةِ ، فَضْلاً عنْ أنَّ قاعَ السَّفينَةِ مكانٌ بارِدٌ يُحيمُ عَلَيْهِ لطّلامُ . وَرَغْمَ ذَلِكَ كانَ على البُحّارَةِ لعَمَلُ فيهِ مُدَّةَ يومَيْن ، ولكِنَّ المَرَضَ أصابَ كويكْوغ بَعْدَ اليَوْمِ لأوّلِ ؛ لأنَّهُ لَمْ يَتَحَمَّلِ العَمَلَ في هَذا الجَوِّ الرَّطْبِ الخانِقِ ، وَهُوَ الَّذي يَعْشَقُ لهَواءَ المُنْعِشَ وَأشِعَّةَ الشَّمْسِ . ازْدادَ عَلَيْهِ المَرَضُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وساءَتْ حالَتُهُ وَتَدَهْوَرَتْ صِحَّتُهُ ، لِدَرَجَةِ أنَّ كُلَّ وَحِدٍ مِنّا ظَنَّ أنَّ نِهايَتَهُ قَدْ حانَتْ ، وَلا أمَلَ في شِفائِهِ ، حَتّى كويكْوغ نَفْسُهُ داخَلَهُ شُعورٌ أكيدٌ بِاقْترابِ مَنِيَّتِهِ ؛ فَهَمَسَ قائلاً : « عَلَيْكُمْ أنْ تُعِدُّوا لي تابوتاً . »

وَبِكُلِّ مَشاعِرِ الحُزْنِ وَالأسى ، صَنَعَ البَحّارَةُ لَهُ تابوتاً مِنَ الأخْشابِ المُلْقاةِ بِمَخْزَنِ السَّفينَةِ .

قالَ كويكْوغ : « ضَعوني فيهِ مَعَ بَعْضِ الخُبْزِ وَالماءِ . »

وَهَكَذا رَقَدَ كوبِكُوغ في التّابوتِ ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسادَةً صَغيرَةً ، وَذِراعاهُ فَوْقَ صَدْرِهِ مُتَقاطِعَتانِ .

وَأَخيراً قالَ في صَوْتٍ خافِتٍ : « أَخْرِجوني مِنْهُ الآنَ . »

وَلَكِنْ بَعْدَ أَنِ اسْتَعَدَّ لِلْمَوتِ بِهَذِهِ الطَّريقَةِ ، قَرَّرَ كوبِكُوغ أَلا يَسْتَسْلِمَ لَهُ ، وَقاوَمَ المَرَضَ مُتَحَمِّلاً ما يُعانيهِ مِنْهُ . وَرُوَيْداً رُوَيْداً تَحَسَّنَتْ صِحَّتُهُ . وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ نَفَضَ عَنْ كاهِلِهِ شَبَحَ المَرَضِ وَآلامِهِ ، وَدَبَّتِ القُوَّةُ في أَوْصالِهِ ، وَسَرَتِ الصِّحَّةُ وَالعافِيَةُ في أَعْضائِهِ ، حَتَّى غَدا قَوِيًّا كَما كانَ ، وَعادَ لِلْعَمَلِ مَرَّةً أُخْرى .

وَفي غَيْرِ أَوْقاتِ الصَّيْدِ ، كانَ كوبِكُوغ غالِبًا ما يُساعِدُ أَحَدَ الحَدّارَةِ الآخَرينَ في عَمَلِهِ . فَكانَ يُعاوِنُ صانِعَ المَعادِنِ المَسْئولَ عَنْ جَميعِ الحَناجِرِ وَالحِرابِ ، الَّتي تُسْتَخْدَمُ في صَيْدِ الحيتانِ ، وَالمُحافَظَةِ عَلَيْها حادَّةً مَسْنونَةً وَجاهِزَةً لِلْعَمَلِ . وَكانَ البَحّارَةُ يُعْطونَهُ خَناجِرَهُمْ لِيَشْحَذَها لَهُمْ .

وَفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ كانَ هَذا الصّانِعُ واقِفًا أَمامَ مَوْقِدِهِ الَّذي تَشْتَعِلُ فيهِ النّارُ ، يُؤَدّي عَمَلَهُ المُعْتادَ وَبَيْنَما كانَ يَسْحَبُ مِنَ النّارِ رَأْسَ حَرْبَةٍ مُتَوَهِّجًا أَحْمَرَ ، وَيَطْرُقُ عَلَيْهِ لِيُشَكِّلَهُ كَما يَشاءُ ، إِذا بِالرُّبّانِ آخاب يَحْضُرُ إِلَيْهِ حامِلاً حَقيبَةً جِلْدِيَّةً صَغيرَةً .

سَأَلَهُ : « ماذا تَصْنَعُ الآنَ ؟ »

« أَقومُ بِإِصْلاحِ رَأْسِ حَرْبَةٍ قَديمَةٍ ، يا سَيِّدي ، كانَ بِها شُقوقٌ . »

« هَلْ تَسْتَطيعُ أَنْ تُعيدَها جَديدَةً كَما كانَتْ مَرَّةً أُخْرى ، بَعْدَ جَميعِ الاسْتِخْداماتِ العَنيفَةِ الَّتي مَرَّتْ عَلَيْها ؟ »

« أَعْتَقِدُ ذَلِكَ ، يا سَيِّدي . »

« أَظُنُّ أَنَّكَ ذو مَقْدِرَةٍ فائِقَةٍ عَلى صِياغَةِ أَيِّ مَعْدِنٍ في شَكْلِ حَرْبَةٍ حَديدٍ تَماماً . إِذًا أَصْغِ إِلى ما أَقولُ لَكَ ! » وَأَخَذَ آخاب يَهُرُّ

حقيبتهُ الجِلْديَّة ، الَّتي صدر عنْها رنينٌ أحَادٌ كما لَوْ كانتْ مَمْلوءَةً بِعُمْلاتٍ ذهبيَّةٍ .

قال : « إنّي أيْضاً أريدُ أنْ تصْنعَ لي حَرْبةً . أريدُ حَرْبةً بِسُتَعْصي كَسْرُها على ألْفٍ من الشَّياطينِ ، مهْما بلَغتْ قُوَّتُهُمْ ! أريدُ حَرْبةً تَحْترِقُ حَسَدَ الحوتِ عِنْدَ انْطلاقِها ، وتَسْتَقرُّ في أعْماقِهِ كَعَظْمَةٍ مِنْ عِظامِهِ . »

وألْقى إيهابٌ لِلصَّانعِ الحَقيبَةَ الَّتي يَحْمِلُها ، قائلاً : « هذِهِ مساميرُ مِنْ تلْكَ الَّتي تَسْتَخْدِمُ في تثْبيتِ حدْوةِ الحصانِ ، الَّذي يشْتَرِكُ في مُبارياتِ السِّباقِ ، وهيَ مِنْ أحْوَدِ وأقْوى أنْواعِ الصُّلْبِ الَّذي اسْتَخْدَمْتَهُ في عَمَلِكَ طَوالَ حَياتِكَ . فاصْنَعْ لي مِنْها حَرْبةً وسَأكافِئُكَ مُكافأةً كَبيرةً تُعوِّضُكَ عنِ الجهْدِ الَّذي تَبْذُلُهُ في ذلِكَ . »

وبَيْنَما كانَ صانِعُ المَعادِنِ والرَّبَّانُ يَعْمَلانِ مَعاً ، مرَّ بِجانِبِهِما فَيْضُ اللهِ في صمْتٍ ، وانْحنى أمامَ النَّارِ تحيَّةً واحْتِراماً ، وبدا كأنَّهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِها بِكَلِماتٍ هامِسَةٍ ، أوْ رُبَّما كانَ — في حَقيقَةِ الأمْرِ — يَصُبُّ اللَّعَناتِ عَلى العَمَلِ الَّذي كانَ الرَّبَّانُ وَصانِعُ المَعادِنِ يَقومانِ بِهِ . ولَكِنَّ أحَداً مِنْهُما لَمْ يَلْحَظْهُ .

وعِنْدَما حانَ وَقْتُ تَبْريدِ رأسِ الحَرْبةِ الجَديدةِ بِالماءِ ، صاحَ آخاب : « لا ، لا ! لا تَبْريدَ بِالماءِ ، فَلَنْ يَرْوِيَها إلّا الدَّمُ ؛ فَما صُنِعَتْ إلّا لاسْتِعْمالِها في الصَّيْدِ والقِتالِ . » ونَظَرَ حَوْلَهُ ، وكانَ كويكْوغ واقِفاً بِالقُرْبِ مِنَ النّارِ .

صاحَ مُنادِياً : « كويكْوغ ، تشْتِيغُو ، داغو ! ماذا تَقولونَ ؟ »

لَبّى الصَّيّادانِ الآخَرانِ تاشْتِيغُو وَداغو النِّداءَ وحَضَرَ مُسْرِعَيْنِ وسألَهُمْ آخاب : « هَلْ تَعْطونَ مِنْ دمائِكُمْ ما يَغْطّي هذِهِ الحَرْبةَ لِتَبْريدِها ؟ »

وافَقَ الرِّجالُ الثَّلاثَةُ وَقالوا في صَوْتٍ واحِدٍ : « نَعَمْ ! نَحْنُ على أتَمِّ اسْتِعْدادٍ . » جَمَعَ آخاب الدِّماءَ ، الَّتي تَدَفَّقَتْ مِنْ جُرْحِ ذِراعِ كُلٍّ مِنْهُمْ في إناءٍ مِنَ الصَّفيحِ ، ثُمَّ صَبَّ أقْسى اللَّعَناتِ على هذِهِ الحَرْبةِ المُلْتَهِبَةِ ، وَهُوَ يَغْمِسُها في دِمائِهِمُ الحَمْراءِ الدّاكِنَةِ لِتَبْريدِها .

الفصل السابع عشر

فَيْضُ اللّهِ يَتَنَبَّأُ بِالْمُسْتَقْبَل

أثناءَ استِمْرارِ رِحْلَتِهِ عَبْرَ بَحْرِ اليابانِ لَمْ يُغادِرْ آخاب مكانَهُ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ إلّا نادِرًا . وكانَ دائِمَ التَّحَدُّثِ مع فَيْضِ اللّهِ ذي الشَّعْرِ الأَبْيَضِ قائِدِ قارِبِهِ الخاصِّ .

أمّا نَحْنُ البَحّارَةَ فَقَلَّما نَسْمَعُ ما يَدورُ بَيْنَهُما مِنْ حَديثٍ . وَفي يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ كُنْتُ أَعْمَلُ عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ مِنْهُما ، فَسَمِعْتُ العَجَبَ العُجابَ .

قالَ آخاب : « انْظُرْ إِلَيَّ ، يا فَيْضَ اللّهِ ! انْظُرْ نَحْوي مُباشَرَةً . إِنَّكَ لا تُوَجِّهُ نَظَراتِكَ إِلَيَّ ! إِنَّكَ تَنْظُرُ فَوْقَ كَتِفَيَّ . إِلامَ تَنْظُرُ إِذًا ؟ »

« إِنَّني أَتَطَلَّعُ إِلى المُسْتَقْبَلِ . »

« إِلى المُسْتَقْبَلِ ! أَخْبِرْني ماذا تَرى ! »

« أَرى عَرَبَتَيْنِ لِنَقْلِ المَوْتى وَقَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ بِكَ الأَجَلُ سَتَرى هاتَيْنِ العَرَبَتَيْنِ عَلى سَطْحِ البَحْرِ وَسَتَراهُما خِلالَ هذه الرِّحْلَةِ . »

« ماذا تَعْني بِهَذا القَوْلِ ؟ وَماذا تَقْصِدُ بِعَرَبَةِ المَوْتى ؟ »

« إِنَّها عَرَبَةٌ تَحْمِلُ نَعْشَ المَيِّتِ إِلى القَبْرِ . »

« وَلَكِنَّكَ تَرى هاتَيْنِ العَرَبَتَيْنِ عَلى البَحْرِ ، وَهُما يَسيرانِ عَلى البَرِّ ! »

« إِنَّني فِعْلاً أَراهُما عَلى البَحْرِ فَكُلُّ شَيْءٍ يَحْمِلُ المَيِّتَ يُعْتَبَرُ عَرَبَةً لِنَقْلِهِ إِلى القَبْرِ ، حَتّى وَلَوْ كانَ قارِبًا أَوْ سَفينَةً وَلَكِنَّ العَرَبَةَ الأولى الَّتي تَحْمِلُ نَعْشِيَ الخاصَّ بي لَنْ تَكونَ مَصْنوعَةً بِأَيْدي العُمّالِ ، أَمّا عَرَبَةُ المَوْتى الأُخْرى فَسَتَكونُ عَرَبَةً خَشَبِيَّةً مَصْنوعَةً مِنْ أَخْشابِ أَمْريكا . »

« ماذا تَرى أَيْضًا غَيْرَ ذَلِكَ ؟ »

« أَرى بَعْضَ التَّوابيتِ في البَحْرِ تَحْمِلُ مَوْتى مِنَ الرِّجالِ ، إِلّا تابوتًا واحِدًا يَحْمِلُ رَجُلاً لا يَزالُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ . »

« ماذا عَنْكَ أَنْتَ ؟ »

رَدَّ فَيْضُ اللّهِ : « سَأَموتُ قَبْلَكَ ، وَلَكِنّي سَأَظَلُّ أَقودُ قارِبَكَ

وسوفَ تراني مَرَّةً أُخرى قَبْلَ أنْ تُوافيَكَ المَنِيَّةُ .»

« زِدْني عِلْماً ، وأَخْبِرْني ماذا تَرى غَيْرَ ذَلِكَ ؟»

« أرى حَبْلاً طَويلاً .»

« هَلْ تَعْني أنَّني سَأموتُ شَنْقاً ؟ وَما مَعْنى هَذا الحَبْلِ ؟»

« لا أعْرِفُ ماذا يَعْني الحَبْلُ ، وَلَكِنْ قَدْ يَكونُ لَهُ مَعْنًى خاصٌّ بِالنِّسْبَةِ لَكَ . فَإنَّ الحَبْلَ فَقَطْ قَدْ يَكونُ سَبَبَ مَوْتِكَ .»

« أخْبِرْني شَيْئاً واحِداً أيْضاً . هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تَرى مُوبي دِك ؟»

« نَعَمْ ، أسْتَطيعُ أنْ أراهُ .»

« وَلَكِنْ أيْنَ هُوَ ؟ قَريبٌ أمْ بَعيدٌ ؟»

« لَيْسَ في مَقْدوري أنْ أقولَ شَيْئاً مُحَدَّداً في هذا الصَّدَدِ . ولَكِنّي أسْتَطيعُ أنْ أخْبِرَكَ بِأنّي سَأراهُ قَبْلَ أنْ تَراهُ أنْتَ أوْ قَبْلَ أنْ يَراهُ أيُّ فَرْدٍ مِنْ رِجالِكَ .»

« مُنَ الآنَ فَصاعِداً ، عَلَيْكَ أنْ تَمْكُثَ بِجانبي عَلى سَطْحِ السَّفينةِ وتُخْبِرَني بِمُجَرَّدِ أنْ تُشاهِدَ مُوبي دِك ، وعلى أيِّ مَدًى يَكونُ ، قَريباً أمْ بَعيداً .»

« سَمْعاً وَطاعَةً ، يا سَيِّدي .»

الفصل الثامن عشر

العاصِفَة

في ذَلِكَ الوَقْتِ ، ما كُنْتُ عَلى يَقينٍ قَطُّ مِنْ قُدْرَةِ فَيْضِ اللّه عَلى التَّنَبُّؤِ بِالمُسْتَقْبَلِ إلى هَذا الحَدِّ . رُبَّما أُلْقِيَتْ نُبُوءَتُهُ لِرُعْبٍ في نَفْسِ آحاب ، مع أنَّهُ عَلى ما يَبْدو لَمْ يَسْتَقِ لأيِّ شَيْءٍ آخَرَ أنْ يَبْعَثَ الخَوْفَ في قَلْبِهِ . ولَكِنَّ التَّعَبَ بَدَأَ يَظْهَرُ عَلى مَلامِحِ الرُّبّانِ ، رُبَّما بِسَبَبِ الحَرارَةِ الشَّديدَةِ لَتي صادَفَتْهُ ، فَقَدْ سادَ بَحْرَ اليابانِ أسْوَأُ طَقْسٍ تَعَرَّضْنا لَهُ في رِحْلَتِنا . ويَبْدو أنَّ مُحاوَلَةَ اصْطِيادِ مُوبي دِك ، لَتي لا نِهايَةَ لَها ، كانَتِ السَّبَبَ الحَقيقِيَّ الَّذي جَعَلَ مَشاعِرَ لغَضَبِ تَسْتَوْلي عَلَيْهِ ، لِدَرَجَةِ أنَّنا نَحْنُ النَّحّارَةَ حَرَصْنا عَلى أنْ نَبْتَعِدَ عَنْهُ . وَفي بَعْضِ الأحْيانِ كُنّا نَشْعُرُ بِأنَّنا عَلى يَقينٍ مِنْ أنَّهُ قَدْ أُصيبَ بِالجُنونِ .

وَذاتَ صَباحٍ كانَ آحاب يَسْتَعْمِلُ المِزْوَلَةَ ، وَهِيَ آلَةٌ لِقِياسِ الزَّوايا ، تُحَدِّدُ لِلنَّحّارَةِ مَوْقِعَ سَفينَتِهِمْ وَسْطَ المُحيطِ العَريضِ

الشّاسع . وَلَكِنَّ اسْتِعْمالَها لا يَكونُ إلّا في وقْتٍ تتوَسَّطُ فيه الشَّمْسُ كَبِدَ السَّماءِ .

تَطَلَّعَ آخاب إلى الشَّمْسِ مُناجِيًا . « أيَّتُها الشَّمْسُ ! أنْتِ الوَحيدَةُ الَّتي تَسْتَطيعين إرْشادي وإخْطاري بِالحَقيقَةِ ، بِما لَدَيْكِ مِنْ قُوَّةٍ خارِقَةٍ ، وبِما لَدَيْكِ مِنْ مَوْقِعٍ عالٍ شاهِقٍ . إنَّكِ تَسْتَطيعينَ أنْ تُحْرِيني بِالمَكانِ الَّذي تُبْحِرُ فيهِ سَفينَتي الآنَ . ولَكِنْ هَلْ يُمْكِنُكِ أنْ تُحْرِيني أيْنَ سَأكونُ غَدًا ؟ هَلْ يُمْكِنُكِ أنْ تُحْرِيني أيْنَ عَدُوّي الآنَ ؟ أيْنَ مُوبي دِك ؟ إنَّكِ تَسْتَطيعين رُؤْيَتَهُ ، ولا بُدَّ أنَّكِ تَنْظُرينَ إلَيْهِ الآنَ ، ولَكِنَّكِ لَنْ تُحْرِيني عَنْ مَكانِهِ . عَلَيْكِ اللَّعْنَةُ إذًا ، وعَلى هَذِهِ المِزْوَلَةِ أيْضًا . ما فائِدَتُها ؟»

بَدَتْ على آخاب عَلاماتُ الغَضَبِ والضَّجَرِ ورَمى المِزْوَلَةَ على سَطْحِ السَّفينَةِ صائِحًا . « لَنْ أسْتَعْمِلَها مَرَّةً أُخْرى إنَّها لا تُحْرِني بِما أوَدُّ مَعْرِفَتَهُ . سَأسْتَعْمِلُ البُوصَلَةَ فَقَطْ لِتُبَيِّنَ لي الاتِّجاهَ شَمالاً أوْ جَنوبًا ، شَرْقًا أوْ غَرْبًا . وأكْتَفي بِوَضْعِ مِقْياسِ السُّرْعَةِ في الماءِ ، مَرْبوطًا بِحَبْلٍ خَلْفَ السَّفينَةِ ؛ لِيَقيسَ سُرْعَتَها والمَسافَةَ الَّتي قَطَعْناها .»

وفي سَوْرَةِ الغَضَبِ الَّتي انْتابَتْهُ ، وَضَعَ قَدَمَهُ السَّليمَةَ على المِزْوَلَةِ وَضَغَطَ عَلَيْها بِكُلِّ قُوَّتِهِ حَتَّى دَمَّرَها تَمامًا .

اسْتَدارَ فيْصَلُ اللّهِ ، الَّذي كانَ واقِفًا بِجِوارِ الرُّبّانِ ، يُراقِبُ بَصْرُفاتِهِ ، وَأطْلَقَ بَصَرَهُ نَحْوَ الأُفُقِ عَبْرَ البَحْرِ المُتَرامي الأطْرافِ .

وَفي مَساءِ ذَلِكَ اليَوْمِ ، هَبَّتْ عاصِفَةٌ مُفاجِئَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَأبْحَرَتِ السَّفينَةُ بِيَكْوُد وَسَطَها مُتَّجِهَةً نَحْوَ الشَّرْقِ أيْضًا . وبَلَغَتْ شِدَّةُ الرِّياحِ أقْصاها ، لِدَرَجَةِ أنَّها نَزَعَتِ الأشْرِعَةَ مِنْ صَواريها . وطَغَتْ مَوْجَةٌ هائِلَةٌ مِنْ مِياهِ البَحْرِ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، وَكَسَرَتْ قارِبَ الرُّبّانِ عِنْدَ مُؤَخِّرَةِ السَّفينَةِ ، وَأحالَتْهُ إلى قِطَعٍ مُتَناثِرَةٍ

انْفَجَرَ ستاربك مِنْ شِدَّةِ اسْتِيائِهِ قائِلاً : « إنَّني لا أوافِقُ عَلى ما يَحْدُثُ . العاصِفَةُ آتِيَةٌ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ اخْتارَ آخاب هَذا الاتِّجاهَ لِلإبْحارِ فيهِ . انْظُروا إلى قُرْبِهِ ! لَقَدْ تَحَطَّمَ إلى قِطَعٍ عِنْدَ مُؤَخِّرَةِ السَّفينَةِ ، في المَوْضِعِ الَّذي اعْتادَ الوُقوفَ فيهِ .»

وَفَجْأَةً صاحَ ستاربك : « انْظُروا ! انْظُروا إلى قِمَّةِ الصّاري هُناك ! اشْتَعَلَتِ النّارُ فيهِ وَسَرَتْ عَبْرَ طولِ الحِبالِ تُحْرِقُها وتُلْتَهِمُها ! أصْبَحْنا مُحاصَرينَ بَيْنَ رِياحٍ وَأمْواجٍ عاتِيَةٍ تَهُبُّ عَلَيْنا ، وَنيرانٌ غَريبَةُ الشَّكْلِ تَنْدَلِعُ مِنْ فَوْقِنا !»

صاحَ ستاربك ضارِعًا : « اللّهُمَّ ارْحَمْنا جَميعًا وَالْطُفْ بِنا !»

وفي وَسْطِ هَذا الجَوِّ المُضْطَرِبِ ، الَّذي يُوحي بِالهَلاكِ وَالخَطَرِ ،

سمع كُلُّ واحدٍ منّا صَوْتَ الرُّبّان ، الّذي انْتابَتْهُ حالَةٌ من الخُمود والهَذَيان . « نعمْ أيُّها الرِّجالُ ! انْظُروا إلى النّارِ البَيْضاءِ المُشْتَعِلَة عالِيًا ! إنّها تُرْشِدُنا إلى الطَّريق المُؤدّي إلى الحوت الأبْيَض ! إنّني سوْفَ أتْبَعُكِ أيَّتُها النّارُ ! سأتْبَعُكِ أيْنما تَذْهَبي وسأقْتَفي أثَرَكِ !»

لَمْ يَتَمالَكْ ستاربَك نفْسَهُ فَصاح مُخاطِبًا الرُّبّان · « القارب ! انْظُرْ إلى قارِبِكَ ! أيُّها الرَّجُلُ !»

وكانت الحرْبَةُ الّتي صَنَعها الرُّبّانُ من مسامير حدْوَةِ الحصان لا تزالُ مَوْصوغَةً في قاربه ، وفي نِهايَةِ نصْلِها الحادِّ تَشْتَعِلُ نارٌ أخْرى لا لَوْنَ لَها .

وأمْسَكَ ستاربَك بِذِراعِ آخاب بِقَبْضَةٍ صارِمَةٍ ، صائِحًا في وجْهِهِ : « كفى أيُّها الرَّجُلُ ! إنَّ اللّه لا يَرْضى عمّا تفْعَلُ . دعْنا نُغيِّرِ اتِّجاه السَّفينة ونَنْحَرْ عائدين إلى وطنا . لَمْ نَرَ خَيْرًا طَوالَ هذه الرِّحْلَةِ إنّها شرٌّ كُلُّها ، يا سيِّدي أرْجوك ! دعْنا نَعُدْ إلى وطَنِنا الآنَ .»

كانَ لهذا المَوْقِفِ صَدًى عَميقٌ في نُفوس جميع البحّارة ، الّذين وافَقوا ستاربَك على ما أعْرَبَ عمّا في نُفوسهِمْ وأسْرعوا يُحْصِرونَ أشْرِعَةً حديدَةً دُون انْتِظارِ أيَّةِ أوامرَ من الرُّبّانِ . وبَدَأَ البَحّارُ الواقِفُ

على عجلَةِ القِيادَةِ يُديرُ اتِّجاه السَّفينة ولكنّ آخاب سرْعان ما التقَطَ حرْبَتَهُ بنارِها المُتأجِّجَةِ فيها ، وصاح في البحّارة قائلاً : « إنّكُمْ أقْسمْتُمْ على صيْدِ الحوتِ الأبْيَضِ ، وقَطَعْتُمْ على أنْفُسِكُمْ عهْدًا و وعْدًا بذلكَ . وسَتَسْتَمرُّ في إبْحارِنا حتّى نَظْفَرَ بِهِ . لَنْ أهْرُبَ . لَنْ أخْشى شيْئًا . انْظُروا إليَّ . سأحَلِّصُكُمْ من مخاوِفِكُمْ .»

وَ وَقَفَ مُمْسِكًا حرْبَتَهُ ، وبِنَفْحةٍ واحِدَةٍ أطْفَأَ النّارَ الّتي كانَتْ مُشْعِلَةً في طَرَفِها .

وهَكَذا اسْتَمَرَّتْ رِحْلَتُنا إلى الشَّرْقِ ، وأعْطى الرُّبّانُ أوامِرَهُ بإصْلاحِ قارِبِهِ الّذي حَطَّمَتْهُ لَطَماتُ الأمْواجِ .

الفصل التاسع عشر

البُوصَلة

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، كانَ البَحْرُ لا يَزالُ مُضْطَرِباً هائِجاً . وَأَبْحَرَتِ السَّفينَةُ تَتَلاطَمُها الأَمْواجُ في مَهَبِّ الرِّياحِ العاصِفَةِ . وَ وَقَفَ آخاب في مَكانِهِ الَّذي اعْتادَ الوُقوفَ فيهِ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ . وَكانَ يَبْدو عَلَيْهِ الهُدوءُ والسَّكينَةُ وَرُبَّما السَّعادَةُ أَيْضاً

وَبَيْنَما تَشُقُّ السَّفينَةُ بِيكُوْد عُبابَ البَحْرِ بِسُرْعَةٍ ، تَدْفَعُها الرِّياحُ إِلى الأَمامِ ، تَحَوَّلَتِ السَّعادَةُ إِلى غَضَبٍ مُفاجِئٍ . هُناكَ خَطَأٌ ما ، هُناكَ شَيْءٌ ما لا يَسيرُ عَلى ما يُرامُ . وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُ ما حَوْلَهُ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ خَطَرَتْ بِبالِهِ فِكْرَةٌ رَهيبَةٌ ، دَفَعَتْهُ إِلى الإِسْراعِ نَحْوَ الرَّجُلِ الواقِفِ عَلى عَجَلَةِ القِيادَةِ ، وَسَأَلَهُ :

« في أَيِّ اتِّجاهٍ نُبْحِرُ الآنَ ؟»

أَجابَ البَحّارُ : « في اتِّجاهِ الشَّرْقِ ، يا سَيِّدي .»

« هذا لَيْسَ صَحيحاً ! أَنْتَ تَكْذِبُ عَلَيَّ ! كَيْفَ يَكونُ اتِّجاهُنا إِلى الشَّرْقِ ، وَلا يَزالُ الوَقْتُ مُبَكِّراً وَالشَّمْسُ خَلْفَنا ؟ نَحْنُ إِذاً نُبْحِرُ نَحْوَ الغَرْبِ .»

هَذِهِ حَقيقَةٌ واقِعَةٌ اكْتَشَفَها آخاب وَحْدَهُ ، الأَمْرُ الَّذي حَدا بِهِ وَستارْبَك إِلى الطَّرَفِ مَعاً إِلى بُوصَلَةِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ وَجَداها بِكُلِّ وُضوحٍ تُشيرُ نَحْوَ الشَّرْقِ فِعْلاً .

تَساءَلَ ستارْبَك : « كَيْفَ إِذاً يُمْكِنُ أَنْ نَكونَ مُتَّجِهينَ نَحْوَ الغَرْبِ ؟»

سادَ الصَّمْتُ بَيْنَهُما ، وَبَدا الوُجومُ عَلَيْهِما ، حَتّى صاحَ آخاب قائِلاً :

« إِنَّني أَعْرِفُ سَبَبَ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ ، فَقَدْ حَدَثَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، يا سَيِّدُ ستارْبَك . إِنَّ العاصِفَةَ الكَهْرَبائِيَّةَ الَّتي هَبَّتْ عَلَيْنا اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ قَدْ أَفْسَدَتِ البُوصَلَةَ ، وَأَوْقَفَتْها عَنِ العَمَلِ كَما يَجِبُ . هَذا بِالضَّبْطِ ما حَدَثَ ؛ فَهَلْ سَمِعْتَ عَنْ مِثْلِ هَذا الأَمْرِ ؟»

أجابَ ستاربَك وَقَدْ بَدا وَجْهُهُ شاحِبًا : « نَعَمْ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ لي قَطُّ .»

وَفي الحالِ أَصْدَرَ آخاب أَوامِرَهُ بِتَحْويلِ اتِّجاهِ السَّفينَةِ ، الَّتي عادَتْ مَرَّةً أُخْرى تَشُقُّ طَريقَها بِصُعوبَةٍ عَكْسَ اتِّجاه الرِّياحِ العاصِفَةِ .

اسْتَطْرَدَ آخاب قائِلاً : « حَتَّى البُوصَلَةُ تُحاوِلُ إِرْغامي عَلى تَغْييرِ ما عَزَمْتُ عَلَيْه ! وَلَكِنِّي سَيِّدُ البُوصَلَةِ أَيْضًا ! وَعَلَيْها أَلا تَعْصِيَ لي أَمْرًا . سَيِّدُ ستاربَك ، أَحْضِرْ لي حَرْبَةً وَإِبْرَةً وَمِطْرَقَةً .»

وَعِنْدَما أَحْضَرَ ستاربَك هَذِهِ الأَشْياءَ ، قالَ آخاب :

« إِنَّ العاصِفَةَ غَيَّرَتِ اتِّجاهَ إِبْرَةِ البُوصَلَةِ ، وَلَكِنِّي سَأَصْنَعُ بُوصَلَةً جَديدَةً بِهَذِهِ القِطْعَةِ مِنَ الصُّلْبِ ، وَسَتَعْمَلُ في كَفاءَةٍ تُضارِعُ أَحْسَنَ بُوصَلَةٍ صُنِعَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَتُشيرُ إِلى الاتِّجاهِ الصَّحيحِ .»

وَنادى الرُّبَّانُ البَحَّارَةَ كُلَّهُمْ ، وَتَجَمَّعوا عِنْدَ مُؤَخِّرَةِ السَّفينَةِ ، حَيْثُ أَخَذَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ حَديثًا مُسْتَفيضًا ، مُلَوِّحًا بِذِراعَيْهِ حَتَّى يُثيرَ

إِعْجابَهُمْ بِمَهارَتِهِ ، وَيَبْهَرَهُمْ بِصِناعَتِهِ لِبُوصَلَةٍ حَديدِيَّةٍ ، مِنَ الحَرْبَةِ وَالإِبْرَةِ .

وَصاحَ فيهِمْ : « انْظُروا بِأَنْفُسِكُمْ . أَنا سَيِّدُ هَذِهِ البُوصَلَةِ . انْظُروا ! ها هِيَ الشَّمْسُ تَسْطَعُ في الشَّرْقِ ، وَهَذِهِ الإِبْرَةُ تُشيرُ إِلى جِهَةِ الشَّرْقِ أَيْضًا ، وَكَأَنَّها تُقْسِمُ لَكُمْ أَنَّ هَذِهِ البُوصَلَةَ الَّتي صَنَعْتُها بِنَفْسي تَعْمَلُ عَلى خَيْرِ وَجْهٍ وَبِكُلِّ دِقَّةٍ .»

شَعَرَ كُلُّ فَرْدٍ عَلى السَّفينَةِ بِالخَجَلِ إِزاءَ ما أَظْهَرَهُ آخاب مِنْ كِبْرِياءَ وَغُرورٍ يُودِيانِ بِصاحِبِهِما وَبِمَنْ حَوْلَهُ إِلى التَّهْلُكَةِ . وَهَمَسَ ستاربَك بِدُعاءٍ حارٍّ إِلى اللّهِ حَتَّى يُظَلِّلَهُمْ جَميعًا بِرَحْمَتِهِ . وَبَدا أَنَّ السَّفينَةَ بِبِكْوُدٍ في حاجَةٍ ماسَّةٍ إِلى فَيْضٍ مِنْ رِعايَةِ اللّهِ لِيُنْقِذَها بِمَنْ فيها مِنْ تَصَرُّفاتِ رُبَّانِها الطَّائِشَةِ .

وَفي آخِرِ ذَلِكَ اليَوْمِ اكْتَشَفَ البَحَّارَةُ أَنَّ السَّفينَةَ قَدْ فَقَدَتْ مِقْياسَ السُّرْعَةِ ، وَهُوَ الآلَةُ الَّتي وَضَعَها آخاب في الماءِ ، وَرَبَطَها بِحَبْلٍ خَلْفَ السَّفينَةِ ، وَيَبْدو أَنَّ الحَبْلَ انْقَطَعَ وَغاصَ المِقْياسُ في الماءِ .

وَفي ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، سَمِعَ البَحَّارَةُ صَيْحَةً

مُخيفَةً ، وَعِنْدما حادَتْ مِنْهُمُ التِفاتَةً إلى أعْلى شاهَدوا رَجُلاً يَهْوي مِنْ قِمَّةِ الصّاري ، وَعِنْدَما نَظَروا إلى أسْفَلَ لَمْ يَرَوْا إلّا بَعْضَ الأمْواجِ البَيْضاء الصَّغيرَةِ ، وَلَمْ يَسْتَطيعوا مُشاهَدَةَ الرَّجُلِ بَعْدَ ذَلِكَ مُطْلَقًا .

صاحَ ستارْبَك : « اقْذِفوا طَوْقَ النَّجاةِ !»

لَمْ يَكُنْ طَوْقُ النَّجاةِ في السَّفينَةِ بِيكُوْد عَلى شَكْلِ حَلْقَةٍ مُسْتَديرَةٍ كَما هُوَ اليَوْمَ ، بَلْ كانَ رِمْيلاً طَويلاً مَرْبوطًا في حُطّافِ بِمؤخِّرَةِ السَّفينَةِ ، وَيُمْكِنُ إطْلاقُهُ في الماءِ بِسُهولَةٍ وَقْتَ الحاجَةِ ، وَلَكِنَّ أحَدًا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُ مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ .

وَلِسوءِ الحَظِّ امْتَلأَ رِمْيلُ النَّجاةِ بِالماءِ وَغاصَ في أعْماقِ البَحْرِ . أمّا البَحّارُ العَريقُ فَكانَ يابانِيَّ الجِنْسِيَّةِ ، وكانَ يَقومُ بِنَوْبَةِ المُراقَبَةِ وَالاسْتِطْلاعِ عِنْدَ قِمَّةِ الصّاري ، وَعِنْدَما سَقَطَ مِنْ هَذا العُلُوِّ الشّاهِقِ ابْتَلَعَهُ البَحْرُ وَغابَ عَنّا إلى الأبَدِ .

تَرَتَّبَ عَلى ذَلِكَ أنْ أصْدَرَ آخاب تَعْليماتِهِ إلى ستارْبَك بِإعْدادِ رِمْيلِ نَجاةٍ آخَرَ جَديدٍ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا رِمْيلٌ خَفيفُ الوَزْنِ يَسْتَطيعُ أنْ يَمْكُثَ طافِيًا فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

قال كويكوغ : « استَعْمِلوا التّابوتَ الّذي سَبَقَ إعْدادُهُ لي سَيَكونُ صُنْدوقًا لِلنّجاةِ يَصْلُحُ لِهَذِهِ المُهِمّةِ .»

صاحَ ستاربَك ساخِرًا : « طَوْقُ لِلنّجاةِ يَتَشَبَّثُ بِهِ الأحْياءُ ، عَلى هَيْئَةِ تابوتٍ توضَعُ فيهِ المَوْتى ! كَيْفَ يَكونُ هَذا التّناقُضُ ؟ إنّني لا أُوافِقُ عَلى هَذِهِ الفِكْرَةِ مُطْلَقًا .»

تَساءَلَ كويكوغ : « لِماذا لا يَكونُ ذَلِكَ ؟ إنّ الأمْرَ لا يَحْتاجُ إلّا إلى إحْكامِ علْقِ التّابوتِ ، وَتَثْبيتِ عِطائِهِ بِالمَساميرِ ، وَسَدِّ الشُّقوقِ ، ثُمَّ طِلائِهِ كُلِّهِ .»

وَعِنْدَما تَمَّتْ هَذِهِ التَّجْهيزاتُ ، أصْبَحَ تابوتُ كويكوغ بِمَثابَةِ طَوْقِ نَجاةٍ جَديدٍ لَنا .

الفصل العشرون

الرُّبّانُ غارْدنَر يَفْقِدُ ابْنَهُ

وَصَلْنا إلى مَكانٍ مِنَ المُحيطِ كانَ آحاب يَنْشُدُ الوُصولَ إلَيْهِ . هُنا في هذا البَحْرِ الشَّرْقِيِّ رَأى مُوبي دِك لأوَّلِ مَرَّةٍ ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ سَيْطَرَتْ عَلَيْهِ فِكْرَةُ قَتْلِ هَذا الحوتِ المُرِد . وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ كُلَّ حَواسِّهِ وَتَفْكيرِهِ .

لَمْ يَعُدْ آحاب يَثِقُ بِنا نَحْنُ البَحّارَةَ ثِقَةً تامَّةً ، كَما كانَ مِنْ قَبْلُ ، فَكانَ كُلَّ يَوْمٍ يُراقِبُ بِنَفْسِهِ ظُهورَ الحوتِ ، وَفَيْضُ اللّهِ دائِمًا بِجانِبِهِ .

وَذاتَ يَوْمٍ كانَ الرُّبّانُ واقِفًا كَالمُعْتادِ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، مُتَرَقِّبًا ظُهورَ مُوبي دِك ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَهُ ، بَلْ رَأى سَفينَةً كَبيرَةً تَتَّجِهُ بِسُرْعَةٍ نَحْوَ سَفينَتِنا بِيكُود . وَلاحَظَ آحاب أنَّ عَدَدًا كَبيرًا مِنْ رِجالِها كانوا يَقومونَ بِمُهِمَّةِ المُراقَبَةِ وَالاسْتِطْلاعِ عِنْدَ قِمَمِ صَواري

السَّفينَة ، الأمْرُ الَّذي يَعْني أنَّهُمْ كانوا يَبْحَثونَ عَنْ شَيْءٍ هامٍّ بِكُلِّ جِدٍّ وَاهْتِمامٍ .

وَعِنْدَما اقْتَرَبَتْ هَذِهِ السَّفينَةُ اسْتَطاعَ آخاب أنْ يَقْرَأَ اسْمَها « راشيل » وَبَدَأَ رُبَّانُها يَصيحُ لِسَفينَتِنا بِيَكُّود بِالتَّحِيَّةِ البَحْرِيَّةِ المُتعارَف عَلَيْها .

وَلَكِنَّ آخاب رَدَّ عَلَيْهِ بِأعْلى ما لَدَيْه مِنْ صَوْتٍ ، مُتَسائِلاً : « هَلْ رَأَيْتُمُ الحوتَ الأبْيَضَ ؟»

« نَعَمْ ، رَأَيْناهُ أمْسِ . هَلْ رَأَيْتُمْ أنْتُمْ قارِبَ صَيْدٍ مَفْقوداً ؟»

لَمْ تَكَدْ تَمْضي بِضْعُ دَقائِقَ حَتَّى كانَ رُبَّانُ السَّفينَةِ راشيل يُجَدِّفُ بِأحَدِ القَوارِبِ مُتَوَجِّهاً إلى سَفينَتِنا . وَعِنْدَ التَّلاقي تَبَيَّنَ أنَّهُ مِنْ جَزيرَةِ نانْتوكِت وَيُدْعى عارْدنر ، ويَعْرِفُهُ آخاب حَقَّ المَعْرِفَةِ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ لَمْ يُحْسِنِ اسْتِقْبالَهُ ، بَلْ عَلى العَكْسِ تَصَرَّفَ مَعَهُ بِطَريقَةٍ غَيْرِ لائِقَةٍ ، فَلَمْ يَهْتَمَّ حَتَّى بِتَحِيَّتِهِ ، وَفاجَأَهُ مُتَسائِلاً في الحالِ : « أيْنَ هُوَ ؟ هَلْ تَمَكَّنَ أحَدٌ مِنْ قَتْلِهِ ؟ لِماذا لَمْ تَسْتَطيعوا القَضاءَ عَلَيْهِ ؟ أيْنَ هُوَ الآنَ ؟»

أخَذَ الرُّبَّانُ غارْدنَر يَحْكي قِصَّتَهُ :

« انْطَلَقَتْ أمْسِ ثَلاثَةُ قَوارِبَ مِنْ قَوارِبِنا لاصْطِيادِ الحيتانِ في

مِنْطَقَةٍ بَعيدَةٍ نَوْعاً ما عَنْ سَفينَتِنا راشيل . وَفَجْأةً رَأَيْتُ رَأْسَ مُوبي دِك الأبْيَضَ بِالقُرْبِ مِنَّا تَماماً ، فَأرْسَلْتُ عَلى الفَوْرِ قارِباً آخَرَ لِصَيْدِهِ . وَأخَذْنا نُراقِبُ هَذِهِ المُحاوَلَةَ في اهْتِمامٍ بالِغٍ . وَسُرْعانَ ما أطْلَقَ الرِّجالُ حِرابَهُمْ عَلَيْهِ . وَفي لَمْحِ البَصَرِ اخْتَفى الحوتُ الأبْيَضُ والقارِبُ مَعاً مِنْ عَلى سَطْحِ البَحْرِ . وَلَمْ يَظْهَرْ لَهُما أثَرٌ حَتَّى الآنَ . اعْتَقَدْنا أنَّ الحوتَ قَدْ سَحَبَ القارِبَ إلى أعْماقِ البَحْرِ حينَ عاصَ تَحْتَ سَطْحِ الماءِ ، وَظَلَلْنا نُتابِعُ المَوْقِفَ وَنُراقِبُ الأحْداثَ ، حَتَّى سادَ الظَّلامُ وَعادَتْ جَميعُ القَوارِبِ الأخْرى إلى السَّفينَةِ راشيل ، وَلَمْ نَتَوَقَّفْ عَنِ البَحْثِ عَنِ القارِبِ المَفْقودِ طَوالَ اللَّيْلِ .»

تَساءَلَ آخاب : « هَلْ وَجَدْتُمُوهُ ؟»

« لا . وَإنِّي أرْجوكَ الآنَ أنْ تُساعِدَنا في البَحْثِ عَنْهُ ، خاصَّةً وَأنَّ وَلَدي كانَ مَعَ الصَّيَّادينَ في ذَلِكَ القارِبِ . أسْتَحْلِفُكَ بِاللّهِ أنْ تُعاوِنَنا بِأقْصى ما لَدَيْكَ مِنْ عَزْمٍ في مَسْحِ هَذِهِ المِنْطَقَةِ مِنَ البَحْرِ ؛ بَحْثاً عَنِ القارِبِ .»

هَزَّ آخاب رَأسَهُ مُبْدِياً عَدَمَ اسْتِعْدادِهِ لِلاسْتِجابَةِ إلى تَوَسُّلاتِ عارْدنَر .

« إذا كانَ الأمْرُ كَذَلِكَ ، فَاسْمَحْ لي بِتَأخيرِ السَّفينَةِ بِيَكُّود

لِمُدَّةِ ثَمانٍ وَأَرْبَعينَ ساعَةً . وَأَعِدُكَ أَنْ أَدْفَعَ لَكَ أَيَّ مَبْلَغٍ مِنَ المالِ تَطْلُبُهُ مِنِّي . سْمَحْ لي بِهَذِهِ المُدَّةِ القَصيرَةِ فَقَطْ ، وَيَجِبُ أَلا تَرْفُضَ طَلَبي وَإِنَّني عَلى يَقينٍ مِنْ أَنَّكَ سَتَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلي .»

وَلَكِنَّ آخاب وَقَفَ صامِتًا كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا .

« لَنْ أُعادِرَ هَذا المَكانَ حَتَّى تُوافِقَ عَلى طَلَبي . فَكِّرْ قَليلاً ؛ مادا لَوْ كانَ ابْنُكَ أَنْتَ في هَذا القارِبِ المَفْقودِ ؟ أَ مُوافِقٌ أَنْتَ ؟»

حينَئِذٍ صاحَ الرُّبّانُ غارْدنَر مُنادِيًا بَحّارَةَ السَّفينَةِ بِيكْوُد : « هَلُمُّوا إِلَيَّ ، يا رِجالُ ! حَوِّلوا دَفَّةَ السَّفينَةِ .»

عِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ آخاب عَنْ صَمْتِهِ صائِحًا في انْفِعالٍ : « كُفُّوا عَنْ هَذا العَبَثِ ! لا تَلْمِسوا حَبْلاً واحِدًا ! غارْدنَر ! إِنَّني لَنْ أُوافِقَ عَلى ذَلِكَ ! كُلُّ هَذا التَّعْطيلِ يُؤَدّي إِلى ضَياعِ الوَقْتِ سُدًى ! كانَ اللّهُ في عَوْنِكَ . وَلَعَلّي أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْفُوَ عَنْ نَفْسي أَوْ أَصْفَحَ عَنْها لِتَصَرُّفي مَعَكَ عَلى هَذا النَّحْوِ .»

ثُمَّ اسْتَدارَ آخاب مُبْتَعِدًا عَنْ غارْدنَر قائِلاً : « سَيِّدُ ستارْبَك ! اصْرِفْ كُلَّ الغُرَباءِ عَنْ سَفينَتي في ظَرْفِ ثَلاثِ دَقائِقَ سَنُبْحِرُ في طَريقِنا كَما كُنّا مِنْ قَبْلُ .»

انْطَلَقَتْ بِيكْوُد في خَطِّ سَيْرِها عَلى حينِ كانَ بَحّارَتُهُ يُشاهِدونَ

السَّفينَةَ راشيل ، وَهِيَ تَتَحَرَّكُ إِلى الخَلْفِ تارَةً وَتُبْحِرُ إِلى الأَمامِ تارَةً ، وَجَميعُ رِجالِها يَقِفونَ عَلى سَطْحِها يَبْحَثونَ عَنْ قارِبِهِمُ المَفْقودِ . وَلَيْسَ هُناكَ إِلا بَصيصٌ مِنَ الأَمَلِ ، أَوْ لا أَمَلَ عَلى الإِطْلاقِ في أَنْ يَعْثُروا عَلَيْهِ .

الفصل الحادي والعشرون

ظهور مُوبي دِك

ابْتَهَجَ آخاب بِالأَخْبارِ الَّتي سَمِعَها عَنِ الحوتِ الأَبْيَضِ مِنْ رُبّانِ السَّفينَةِ راشيل ، الَّذي فُوجِئَ بِالحوتِ أَمْسِ فَقَطْ بِالقُرْبِ مِنْ سَفينَتِهِ . وَاسْتَنْتَجَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الحوتَ الأَبْيَضَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ قَريباً مِنْ هَذا المَوْقِعِ ، خاصَّةً وَأَنَّ هَذِهِ المِنْطَقَةَ مِنَ المُحيطِ هِيَ إِحْدى الأَماكِنِ المُفَضَّلَةِ لِمُوبي دِك ، والَّذي انْتَزَعَ فيها ساقَ الرُّبّانِ آخاب . وَلَعَلَّ هَذا هُوَ السَّبَبُ الَّذي جَعَلَ آخاب يَصُمُّ أُذُنَيْهِ عَنِ الاسْتِماعِ لِرَجاءِ غارْدنر في البَحْثِ عَنِ القارِبِ المَفْقودِ ، فَقَدْ كانَ يَخْشى أَنْ تَضيعَ مِنْهُ فُرْصَةُ مُواجَهَةِ مُوبي دِك .

بَدا سَطْحُ السَّفينَةِ بِيكُوْد في هَذا الوَقْتِ ضَيِّقاً لِلْعايَةِ ، لا يَتَّسِعُ لِما يَعْتَمِلُ في صَدْرِ آخاب مِنْ رَغْبَةٍ عارِمَةٍ في العُثورِ عَلى مُوبي دِك ؛ لِمُلاقاتِهِ وَالانْتِقامِ مِنْهُ . لِذَلِكَ أَصْدَرَ أَوامِرَهُ لِلْبَحّارَةِ أَنْ

يَصْنَعوا لَهُ مَقْعَداً خَشَبِيّاً ، وَرَبَطَ هَذا المَقْعَدَ بِحَبْلَيْنِ مِنَ الحِبالِ المُتَدَلِّيَةِ مِنَ الصّاري .

قالَ آخاب مُخاطِباً السَّيِّدَ ستاربَك : « أَنْتَ المَسْئولُ عَنْ هَذِهِ الحِبالِ . احْدِبِ المَقْعَدَ إِلى أَعْلى حَتّى يَرْتَفِعَ إِلى قِمَّةِ الصّاري إِنَّني أَوَدُّ أَنْ أَكونَ أَوَّلَ شَخْصٍ يَرى مُوبي دِك . »

جَلَسَ آخاب في المَقْعَدِ وَأَخَذَ ستاربَك يَسْحَبُ الحَبْلَيْنِ لِيَرْتَفِعَ المَقْعَدُ رُوَيْداً رُوَيْداً ، وَقَدْ امْتَقَعَ وَجْهُهُ حَتّى وَصَلَ المَقْعَدُ إِلى قِمَّةِ الصّاري تَقْريباً . وَهُناكَ اسْتَقَرَّ آخاب بِالقُرْبِ مِنْ رَجُلِ المُراقَبَةِ ، يُشارِكُهُ في مُهِمَّةِ الاسْتِطْلاعِ . أَمّا بَحّارَةُ السَّفينَةِ فَكانوا يُراقِبونَ هَذِهِ التَّصَرُّفاتِ الغَريبَةَ الَّتي تَصْدُرُ عَنْ رُبّانِهِمْ ، وَالخَوْفُ يَمْلأُ قُلوبَهُمْ

كانَ بَعْضُهُمْ يَحْمِلونَ طَعامَ الرُّبّانِ إِلى قِمَّةِ الصّاري مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَعِنْدَما يَحينُ اللَّيْلُ يَهْبِطونَ بِمَقْعَدِهِ إِلى سَطْحِ السَّفينَةِ ، الَّذي لا يُغادِرُهُ آخاب أَبَداً ، لِدَرَجَةِ أَنَّ مَلابِسَهُ الَّتي تَبْتَلُّ بِماءِ المَطَرِ وَقَطَراتِ النَّدى لَيْلاً ، تُجَفِّفُها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الَّتي تَسْطَعُ نَهاراً ، فَلا وَقْتَ لَدَيْهِ لِتَبْديلِها .

اسْتَمَرَّتِ السَّفينَةُ بِيكُوْد في الإِبْحارِ لَيْلاً وَنَهاراً وَالأَمْواجُ

تَمْضي مَعَ الأيّام وَتتعاقَبُ دونَ عَدَدٍ أوْ حِسابٍ ، وَالتّابوتُ الّذي أحيلَ إلى طَوْقٍ لِلنّجاةِ لا يَزالُ يَتأرْجَحُ عِنْدَ مُؤخّرَةِ السّفينَةِ .

وَفي ساعَةٍ مُبكّرَةٍ مِنْ صَباحِ أحَدِ الأيّامِ شاهَدَ ستاربَك الرُّبّانَ آخاب مُستَنِداً إلى سورِ السّفينَةِ ، مُحَمْلِقاً إلى البَحْرِ . وَبَيْنَما كانَ يُراقِبُهُ رأى قَطَراتٍ من الدُّموعِ تَسْقُطُ مِنْ عَيْنَيْ هذا الرَّجُلِ المُسِنّ إلى البَحْرِ .

دَنا ستاربَك مِنَ الرُّبّانِ حَتّى وَقَفَ بِجانِبِهِ ، وَعِنْدَما أحَسّ بِهِ الرُّبّانُ ناداهُ قائلاً : « ستاربَك ! »

« نَعَمْ ، يا سَيِّدي . »

« آهٍ ، يا ستاربَك ! كانَ يَوْماً مِثْلَ هذا اليَوْمِ ، تَهُبُّ فيهِ الرِّياحُ بِرِفْقٍ كَأنّها النَّسيمُ العَليلُ ، وَتَصْفو فيهِ السَّماءُ دونَ سُحُبٍ أوْ غُيومٍ . إنّني أتَذَكّرُ جَيِّداً ذلِكَ اليَوْمَ مُنْذُ أرْبَعينَ عاماً . في ذلِكَ الوَقْتِ البَعيدِ كُنْتُ شاباً يافِعاً في الثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ ، أتَعَلَّمُ كَيْفَ أسْتَخْدِمُ الحَرْبَةَ وَأتَدَرَّبُ عَلى صَيْدِ الحيتانِ . مُنْذُ أرْبَعينَ سَنَةً كامِلَةً ! طَوالَ هذِهِ السَّنَواتِ طَلِلْتُ أقومُ بِصَيْدِ الحيتانِ حَتّى الآنَ . سَنَواتٌ وَسَنَواتٌ قَضَيْتُها في هذا العَمَلِ الشّاقِّ المَحْفوفِ بِالمَخاطِرِ وَالصِّعابِ . بِحارٌ عاصِفَةٌ وَرِياحٌ مُحيفَةٌ مُرْعِبَةٌ . فَكِّرْ مَعي في الحَياةِ الّتي عِشْتُها . سَنَواتٌ مِنَ الوَحْدَةِ وَالشُّعورِ بِالعُزْلَةِ . أعْمَلُ عَبْداً لِلآخَرينَ . مُنْتَهى الحَماقَةِ وَاللاهَةِ . آخاب ، لَقَدْ قارَبَ مِنَ العُمْرِ ستّينَ عاماً ، لَمْ يَكُنْ إلّا شَخْصاً عَبيًّا وَلا يَزالُ . وَالآنَ ما أنا إلّا شَخْصٌ مَجْنونٌ يَلْهَثُ وَراءَ اصْطِيادِ مُجَرَّدِ حوتٍ واحِدٍ . واقِعُ الأمْرِ أنّني أصْبَحْتُ أقْرَبَ إلى الشَّيْطانِ مِنْهُ إلى الإنْسانِ . ماذا جَنَيْتُ مِنْ هذه الحَياةِ ؟ هَلْ أتَمَتَّعُ اليَوْمَ بِثَراءٍ أعْرَضَ وَأوْسَعَ ؟ أمْ أتَمَتَّعُ بِصِحَّةٍ وَعافِيَةٍ أفْضَلَ ؟ لا هذا وَلا ذاكَ . بِماذا أسْتَطيعُ إذاً أنْ أفْخَرَ وَأزْهُوَ ؟ بِساقي الّتي فَقَدْتُها أمْ بِالعاهَةِ المُسْتَديمَةِ الّتي تَعوقُ حَرَكاتي وَسَكَناتي ؟ ما أنا في الحَقيقَةِ إلّا شَخْصٌ مُسِنٌّ عاجِزٌ يَعيشُ بِساقٍ

واحدةٍ فقطْ ، وَبهذا الكَمِّ مِنَ الجُنونِ الّذي يُسَيْطِرُ عَلى عَقْلِهِ وَتفكيرِهِ . ما الّذي يَتحكَّمُ في سُلوكي وَيَتسَلَّطُ عَلى تَصرُّفاتي ؟ وَما الّذي يَدْفَعُني إلى الهلاكِ والدّمارِ ؟ اهٍ ، يا ستاربك ! أخبِرْني ماذا تَرى ؟»

وَلكِنَّ ستاربَث – بَعْدَ أنِ استَمَعَ إلى هَذِهِ الآهاتِ وَهَذِهِ الحَسَراتِ ، وَبَعْدَ كَبْتٍ دامَ عَشَراتِ السِّنينَ نأى عَنِ الرُّبّانِ وَبْتَعَدَ عَنْهُ ، شاحِبَ الوَجْهِ مُمْتَقِعَ الوَجْهِ كَالأمْواتِ ، دونَ أنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ مِنْ فَرْطِ تأثُّرِهِ وَحُزْنِهِ واضْطِرابِهِ .

سارَ آحاب عَبْرَ سَطْحِ السَّفينةِ ، وَ وقَفَ مُتَطَلِّعًا إلى البَحْرِ عَلى الجانِبِ الآخَرِ ، حَيْثُ فُوجِئَ بِعَيْنَيْنِ بارِزَتَيْنِ في مِياهِ البَحْرِ الصّافِيَةِ أسْفَلَ مِنْهُ ؛ فَأطْلَقَ صَيْحَةَ اسْتِغْرابٍ مُدَوِيَةً ، وَظَهَرَ أمامَهُ حَبالُ شَخْصٍ لَمْ يَكُنْ إلا قَيْصَ اللّهِ الّذي يُلازِمُهُ في صَمْتٍ وَهُدوءٍ كَأنَّهُ يُذَكِّرُهُ بِتَنَبُّؤاتِهِ .

وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها ، انْطَلَقَتْ صَيْحَةٌ مِنْ قِمَّةِ الصّارِي : « ظَهَرَ الحوتُ الأبْيَضُ ! ظَهَرَ بِأنْفِهِ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ! إنَّهُ مُوبي دِك !»

الفصل الثاني والعشرون
الرُّبّانُ في فمِ الحوت

دَوَّتْ صَيْحَةُ رَجُلِ المُراقَبَةِ في جَميعِ أنْحاءِ السَّفينَةِ ، وَرَدَّدَتْها البَحّارَةُ إعْلامًا بِظُهورِ الحوتِ الأبْيَضِ . وَفي أقْصَرِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ كانَ الجَميعُ مُسْتَعِدّينَ في قَوارِبِهِمُ الّتي انْطَلَقَتْ بِهِمْ في عُرْضِ البَحْرِ

مَرَّةً أخْرى انْدَفَعَتْ جَميعُ قَوارِبِ الصَّيْدِ عَلى سَطْحِ المِياهِ ، وَفي مُقَدِّمَتِها قارِبُ الرُّبّانِ آحاب . كانَ البَحْرُ هادِئًا ، وَكانَ مِنَ اليَسيرِ رُؤْيَةُ ظَهْرِ الحوتِ الأبْيَضِ يَنْزَلِقُ في هُدوءٍ . وَعَلى حينِ غِرَّةٍ ارْتَفَعَ ذَيْلُهُ الضَّخْمُ عالِيًا في الهَواءِ وَغَطَسَ في أعْماقِ البَحْرِ . حِينَئِذٍ تَوَقَّفَتِ القَوارِبُ وَظَلَّتْ طافِيَةً عَلى سَطْحِ الماءِ ؛ انْتِظارًا لِصُعودِ مُوبي دِك . وَبَيْنَما كانَ إيهابُ يَتَرَقَّبُ ظُهورَ الحوتِ في تَحَفُّزٍ وانْتِباهٍ ، تَحَمَّدَ الدَّمُ في عُروقِهِ حينَ شاهَدَهُ آتِيًا إلى السَّطْحِ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ ، فاغِرًا فاهُ إلى أقْصاهُ ، حَيْثُ رَأى فيهِ آحاب بِكُلِّ وُضوحٍ صَفَّيْنِ

طَويلَيْنِ مِنَ الأَسْنانِ وَالأَنْيابِ البَيْضاءِ مُتَّجِهَةً نَحْوَهُ .

أدارَ الرُّبّانُ القارِبَ وَزَحَفَ إِلى مُقَدِّمَتِهِ وَالْتقط الحرْبَة ، ولَكِنَّ مُوبي دِك بَدا كَأَنَّهُ يُراقِبُهُ ، وَكَما لَوْ كانَ يَعْرِفُ ما هُوَ عازِمٌ عَلَيْهِ ؛ فَانْقَلَبَ فَجْأَةً عَلى ظَهْرِهِ واحْتَوى القارِبَ في فَمِهِ بَيْنَ فَكَّيْهِ ، وَأَخَذَ يَتَلاعَبُ بِهِ كَما لَوْ كانَ قِطَّةً تُداعِبُ فَأْرًا .

في هَذا الوَضْعِ الحَرِجِ لَمْ يَكُنْ في مَقْدورِ آخاب أَنْ يُهاجِمَ الحوتَ بِحَرْبَتِهِ ، وَقَدْ أَثارَتْ مَهارَةُ الحوتِ ، وَما انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ شُرورٍ جُنونَ غَضَبِهِ حينَ وَجَدَ نَفْسَهُ عاجِزًا في القارِبِ ، لا حَوْلَ لَهُ وَلا قُوَّةَ ؛ بَيْنَ فَكَّيِ الحوت الَّذي يَمْقُتُهُ أَشَدَّ المَقْتِ ، فَحاوَلَ أَنْ يُخْرِجَ القارِبَ مِنْ فَمِ الحوتِ ، وَلَكِنَّهُ فَقَدَ توازُنَهُ وَسَقَطَ في البَحْرِ وَأَطْبَقَ الحوتُ فَكَّيْهِ عَلى القارِبِ فَقَضَمَهُ نِصْفَيْنِ ، وَظَلَّ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهُما طافِيًا فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ، يَتَعَلَّقُ بِهِ البَحّارَةُ أَمَلاً في النَّجاةِ . وَظَلَّ الحوتُ يَحومُ حَوْلَهُمْ ، في الوَقْتِ الَّذي لَمْ يَجْرُؤْ فيهِ البَحّارَةُ في قَوارِبِ الصَّيْدِ الأُخْرى عَلى مُهاجَمَتِهِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَعْصِفَ بِالرِّجالِ الَّذينَ أَلْقاهُمْ في المِياهِ بِدَيْهِ الضَّخْمِ المَضيعِ ، وَيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ قَضاءً مُبْرَمًا .

لَمْ يَسْتَسْلِمِ الرُّبّانُ لِهَذِهِ الهَزيمَةِ ، بَلْ صاحَ عَلى الرِّجالِ فَوْقَ

السَّفينةِ بِيكُوْد : « اتَّجِهوا بِالسَّفينةِ مُباشرةً نَحْوَ الحوتِ ! اطْرُدوهُ مِنْ هَذا المكانِ !»

وَطَغَتْ مَوْجَةٌ مِنْ أَمْواجِ البَحْرِ عَلَيْهِ ، فَصاغَتْ كَتِمثالَهُ بَيْنَ طَيَّاتِ المِياهِ ، وَلَمْ تَصِلْ إِلى الرِّحالِ . رَغْمَ ذَلِكَ ظَلَّ يُكافِحُ حَتَّى شَقَّ طَرِيقَهُ إِلى سَطْحِ البَحْرِ مَرَّةً أُخْرى مُضْطَرًّا إِلى ابْتِلاعِ كَمِّيَّاتٍ مِنْ مِياهِ البَحْرِ ، مُحاوِلاً تَوْصِيلَ أَوامِرِهِ إِلى رِجالِهِ .

وَهَكَذا تَحَرَّكَتِ السَّفِينَةُ بِيكُوْد نَحْوَهُمْ . وَبِمُجَرَّدِ ابْتِعادِ الحوتِ عَنْهُمْ ، انْدَفَعَ بَحَّارَةُ القَوارِبِ الأُخْرى لالْتِقاطِ الرُّبَّانِ وَبَحَّارَةِ قارِبِهِ .

رَقَدَ آحاب في قاعِ القارِبِ الَّذي أَنْقَذَهُ فاقِدَ الوَعْيِ خائِرَ القُوى ، وَلَكِنَّهُ تَحامَلَ عَلى نَفْسِهِ وَرَفَعَ رَأْسَهُ قَلِيلاً وَهُوَ يُعانِي مِنْ آلامٍ مُبَرِّحَةٍ مُتَسائِلاً : « هَلْ وَجَدْتُمْ حَرْبَتِي سَلِيمَةً ؟»

« نَعَمْ ، يا سَيِّدي ! لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ فُرْصَةٌ لإِطْلاقِها عَلى الحوتِ .»

« ضَعوها بِجِواري . هَلْ فَقَدْنا أَحَداً مِنْ رِجالِنا ؟»

« لا ، يا سَيِّدي ! أَنْقَذْناهُمْ جَمِيعاً .»

« إِذاً أَعينوني عَلى الجُلوسِ . هُناكَ عَلى مَدى البَصَرِ لا أَزالُ

أَراهُ مَرَّةً أُخْرى .»

وَلَكِنَّ مُوبِي دِك أَطْلَقَ العِنانَ سابِحاً بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، لا تَسْمَحُ لِقَوارِبِ الصَّيْدِ أَنْ تَلْحَقَ بِهِ عَلى الإِطْلاقِ ؛ فَعادَتْ بِرِحالِها إِلى السَّفِينَةِ بِيكُوْد الَّتي نَشَرَتْ كافَّةَ أَشْرِعَتِها ، وَأَسْرَعْنا تَقْتَفي أَثَرَ الحوتِ الأَبْيَضِ ، حَتَّى خَيَّمَ الظَّلامُ . وَظَلَّ آحاب مُقيماً فَوْقَ سَطْحِ السَّفِينَةِ حَتَّى بَزَغَ ضَوْءُ النَّهارِ مَرَّةً ثانِيَةً .

الفصل الثالث والعشرون

عَوْدَةُ مُوبي دِك

مُنْذُ صباحِ اليَومِ التّالي تَرَكَّزَ اهْتِمامُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ بَحّارَةِ السَّفينَةِ عَلى تَرَقُّبِ ظُهورِ مُوبي دِك .

لَمْ يَعُدْ أيُّ شَخْصٍ مِنْهُمْ يَشْعُرُ بِخَوْفٍ أوْ وَجَلٍ ، فَقَدْ أثارَتْهُمُ المُغامَرَةُ الّتي خاضَها الرُّبّانُ وَرِحالُهُ في مُواجَهَةِ الحُوتِ الأبْيَضِ ، وَطَغَتْ عَلى مُخَيِّلَةِ كُلٍّ مِنْهُمْ . وَبِمُجَرَّدِ ما اسْتَأنَفَتِ السَّفينَةُ إبْحارَها في أعْقابِ مُوبي دِك ، تَلاشى كُلُّ خَوْفٍ كانوا يَشْعُرونَ بِهِ مِنْ هَذا الحوتِ المُفْتَرِسِ ، وَتَوارى كُلُّ خَطَرٍ كانوا يَتَوَقَّعونَهُ مِنْ جَرّاءِ لجُنونِ الّذي سَيْطَرَ عَلى رُبّانِهِمْ .

صاحَ آخاب : « هَلْ تَرَوْنَهُ ؟ هَلْ تَرَوْنَ مُوبي دِك ؟»

إنَّهُ هُناكَ ! يَصْعَدُ مِنْ أعْماقِ البَحْرِ بِأقْصى ما لَدَيْهِ مِنْ سُرْعَةٍ ، وَيَقْفِزُ مُنْطَلِقًا بِجَسَدِهِ كُلِّهِ في الهَواءِ ، ثُمَّ يَهْبِطُ مَرَّةً أخْرى كُتْلَةً

واحِدَةً بِحَجْمِهِ الضَّخْمِ ، فَيُثيرُ البَحْرَ وَيَجْعَلُهُ هائِجًا مُضْطَرِبًا بِالأمْواجِ - الأمْواجِ البَيْضاءِ الّتي تُبَدِّدُ زُرْقَةَ المِياهِ .

صاحَ آخاب « إلى القَوارِبِ ، يا رِجالُ ! أمّا أنْتَ ، يا سَيِّدُ ستاربك ، فَعَلَيْكَ بِالبَقاءِ في السَّفينَةِ ، وَتَوَلَّ مَسْئولِيَةَ قِيادَتِها . وَعَلَيْكَ أنْ تَسيرَ بِها مُتَتَبِّعًا قَوارِبَ الصَّيْدِ وَمُراعِيًا لِمَسافَةَ المُلائِمة .»

انْطَلَقَتْ ثَلاثَةُ قَوارِبَ فَقَطْ مِنَ السَّفينَةِ إلى البَحْرِ . وَفي الحالِ ، اسْتَدارَ مُوبي دِك سابِحًا في أعْقابِها ، وَكانَ قارِبُ الرُّبّانِ في وَسَطِها . وَاسْتَجْمَعَ الحوتُ الأبْيَضُ كُلَّ طاقَتِهِ وَسُرْعَتِهِ ، وَفي الوَقْتِ الّذي كانَتْ فيهِ الحِرابُ تَتَقاطَرُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ ، فَتَحَ فَكَّيْهِ

عَنْ آخِرِهما وَأخذَ يُهاجِمُ في عُنْفٍ وَثَوْرَةٍ مُحاوِلاً تَدْميرَ كُلِّ شَيْءٍ حَوْلَهُ ، حَتَّى تَمكَّنَ مِنْ تَحْطيمِ قارِبَيْ فلاسك وستاب بَعْدَ مَعْرَكَةٍ حامِيةٍ ، وَأَلْقَى بِالبَحَّارةِ في البَحْرِ يُصارِعونَ المَوْتَ غَرَقًا ويُكافِحونَ مِنْ أَجْلِ النَّجاةِ .

أَمَّا قاربُ الرُّبَّانِ فَكانَ لا يَزالُ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ . وَفجْأَةً غطسَ مُوبي دِك في البَحْرِ وَصَعِدَ مِنْ تَحْتِ القاربِ قاذِفًا بِهِ في الهَواءِ ، حَيْثُ هَبطَ مقْلوبًا رَأْسًا عَلى عَقِبٍ ، وَاسْتَطاعَ بحَّارتُهُ بَعْدَ كِفاحٍ مَريرٍ أَنْ يَشُقُّوا طَريقَهُمْ مِنْ تَحْتِ القاربِ إلى سَطْحِ البَحْرِ .

ولِحُسْنِ الحَظِّ ، كانَتِ السَّفينَةُ بِيكُوْد بالقُرْبِ مِنْ مَوْقِعِ المَعْرَكَةِ ، فَأَسْرَعَتْ بِالْتِقاطِ الرِّحالِ مِنَ البَحْرِ ، وَأَنْقَذَتْهُمْ .

صاحَ الرُّبَّانُ : « أَحْصُوا الرِّحالَ ! أَيْنَ فَيْضُ اللَّهِ ؟ مَفْقودٌ ! لا يُمْكِنُ تَصْديقُ ذَلِكَ !» وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ واقِعٌ فِعْلاً ؛ فَلَمْ يَكُنْ فَيْضُ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ النَّاجينَ العائِدينَ .

قالَ ستاب : « رَأَيْتُ الحوتَ الأَبْيَضَ يَسْحَبُهُ تَحْتَ الماءِ وَقَدِ الْتَفَّ حَبْلُ الحَرْبَةِ عَلَيْهِ .»

صاحَ آخاب : « حَرْبَتي ضاعَتْ ! أَسْرِعوا ! أَحْضِروا مَزيدًا مِنَ الحِرابِ . زيدوا سُرْعَةَ السَّفينةِ . سَأَقْتُلُ هَذا الحوتَ رَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ !»

تَصَرَّعَ ستاربك إلى اللَّهِ أَنْ يُنْقِذَهُمْ جَميعًا مِنْ أَحْطارِ الحُمَّى الَّتي انْتابَتِ الرُّبَّانَ بِمُطارَدَةِ الحوتِ الأَبيض ، وَحاوَلَ أَنْ يَرُدَّ آخاب إلى حادَّةِ الصَّوابِ ، قائِلاً لَهُ : « لا فائِدَةَ مِنَ الاسْتِمْرارِ في هَذا الصِّراعِ . أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ ! إِنَّنا لَنْ نَسْتَطيعَ الظَّفَرَ بِهِ أَبَدًا ! وَمِنَ الحَماقَةِ الطَّائِشَةِ أَنْ نُحاوِلَ اصْطِيادَ هَذا المَخْلوقِ القاتِلِ بَعْدَ ذَلِكَ ! أَ لَمْ تَرَ بِنَفْسِكَ كَيْفَ يُنازِلُنا وَيَخوضُ مَعَنا مَعارِكَ ضارِيَةً ؟ لَيْسَ هُناكَ ما يَدْعو إلى الإِصْرارِ عَلى إِقْحامِ أَنْفُسِنا في هَذِهِ المُحاوَلَةِ اليائِسَةِ ، يا سَيِّدي ، وَإِلا فَإِنَّهُ – بِكُلِّ تَأْكيدٍ – سَيَدْفِنُنا جَميعًا في أَعْماقِ البَحْرِ !»

رَدَّ عَلَيْهِ آخاب قائِلاً : « إِنَّهُ القَدَرُ . فَيْضُ اللَّهِ كانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ جَيِّدًا . وَلَيْسَ في وُسْعِنا أَنْ نُغَيِّرَ مَصيرَنا بِأَيْدينا . الآنَ فَقَدْنا فَيْضَ اللَّهِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَسْتَمِرَّ في هَذِهِ المَعْرَكَةِ .»

وَهَمَسَ الرُّبَّانُ قائِلاً لِنَفْسِهِ : « كانَ مِنَ المُحَتَّمِ أَنْ يموت فَيْضُ اللَّهِ أَوَّلاً . وَلَكِنِّي سَأَراهُ مَرَّةً أُخْرى قَبْلَ أَنْ أَموت ، فَكَيْفَ يَكونُ ذَلِكَ مُمْكِنًا ؟»

لَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَةِ البَحَّارَةِ إِلَّا أَنْ يُذْعِنوا لأَوامِرِ الرُّبَّانِ ؛ فَأَقْبَلوا مُرْغَمينَ عَلى إِصْلاحِ القَوارِبِ وَتَرْميمِها ، وَعَلى إِعْدادِ حِرابٍ جَديدَةٍ ؛ اسْتِعْدادًا لِحَوْضِ المَعْرَكَةِ القادِمَةِ مَعَ مُوبي دِك .

الفصل الرابع والعشرون

النِّهايَةُ

في اليَوم التّالي نَزَلَتْ قَواربُ الصَّيْدِ مَرَّةً أُخْرى إلى البَحْرِ . وَكانَ الرُّبّانُ عَلى يَقينٍ مِنْ أنَّ مُوبي دِك لا يَزالُ قَريباً مِنَ السَّفينَةِ . وَبَغْتَةً صاحَ رَجُلُ المُراقَبَةِ وَالاسْتِطْلاعِ مُشيراً إلى ظُهورِ الحوتِ الأبْيَضِ . وَحَمْلَقَ الجَميعُ وانْتَصَبوا في صَمْتٍ ، كَأنَّ عَلى رُءوسِهِمُ الطَّيْرَ ، فَإذا بِهِمْ يُشاهِدونَ الحوتَ المُفْتَرِسَ يَخْرُجُ مِنَ البَحْرِ ثائِراً هائِجاً لا تَزالُ الحِرابُ وَالرِّماحُ مَغْروزَةً في جَسَدِهِ ، وَالحِبالُ المَرْبوطَةُ بِها مَلْفوفَةً حَوْلَهُ ، وَقَدْ جُنَّ جُنونُهُ بِسَبَبِ الآلامِ الَّتي تَعْتَصِرُهُ ؛ فَأخَذَ يَضْرِبُ بِذَيْلِهِ بَيْنَ القَوارِبِ في عُنْفٍ وَضَراوَةٍ ، يَقْلِبُها وَيُحَطِّمُها . وَعِنْدَما اقْتَرَبَ الحوتُ سابِحاً يَتَلَوّى بَيْنَ الأمْواجِ ، دَوَّتْ صَيْحَةُ فَزَعٍ مِنْ أعْماقِ البَحّارَةِ ، حِينَ وَقَعَتْ عُيونُهُمْ عَلى جُثَّةِ فَيْضِ اللّهِ مُلْتَصِقَةً بِجَسَدِ الحوتِ ، مُمَزَّقَةَ الأشْلاءِ ، تُحيطُ بِها حِبالُ الحِرابِ ، وَتَنْظُرُ عَيْناها الجاحِظَتانِ رَأساً إلى آخاب في رُعْبٍ .

صَرَخَ آخاب : « أجَلْ يا فَيْضَ اللّهِ ! إنَّني أراكَ مَرَّةً ثانِيَةً بَعْدَ مَوْتِكَ ؛ فَإذا بِجَسَدِ الحوتِ هُوَ عَرَبَةُ المَوْتى الأولى ، وَكَما تَنَبَّأتَ فَإنَّها لَيْسَتْ مَصْنوعَةً بِأيْدي العُمّالِ ! »

تَوَسَّلَ ستارْبَك إلى آخاب مُتَضَرِّعاً : « الحوتُ يَبْتَعِدُ عَنّا الآنَ ! دَعْهُ وَشَأنَهُ ! وَيَبْدو أنَّهُ عازِفٌ عَنِ القِتالِ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . أنْتَ فَقَطْ الَّذي لا تَزالُ عَلى عِنادِكَ وَإصْرارِكَ عَلى صَيْدِهِ في تَهَوُّرٍ وَحَماقَةٍ ! »

وَلَكِنَّ آخاب صَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ تَوَسُّلاتِ ستارْبَك ؛ وَتَقَدَّمَ بِقارِبِهِ مَرَّةً أُخْرى نَحْوَ الحوتِ ، وَأطْلَقَ حَرْبَتَهُ بِكُلِّ ما لَدَيْهِ مِنْ طاقَةٍ مَكْبوتَةٍ لِلانْتِقامِ ، وَهُوَ يَصُبُّ أقْسى اللَّعَناتِ عَلَيْهِ .

عادَ مُوبي دِك سَريعاً يُهاجِمُ القارِبَ وَيَهُزُّهُ مِنْ ناحِيَةٍ لأُخْرى ، حَتّى ألْقى بِاثْنَيْنِ مِنْ بَحّارَتِهِ في البَحْرِ ، ثُمَّ اتَّجَهَ نَحْوَ السَّفينَةِ بِيكُوْد ، الَّتي كانَتْ بِالقُرْبِ مِن هَذا المَوْقِعِ ، فاغِراً فَكَّيْهِ عَلى مِصْراعَيْهِما في غَضَبٍ شَديدٍ .

صاحَ ستارْبَك : « احْذَروا الحوتَ ! حَوِّلوا الاتِّجاهَ لِمُلاقاتِهِ بِمُقَدِّمَةِ السَّفينَةِ ! أديروها بِسُرْعَةٍ ! »

وَلَكِنَّ مُوبي دِك كانَ أسْرَعَ مِنَ البَحّارَةِ ، فَهَجَمَ وَهُوَ في أوْجِ هِياجِهِ عَلى جَنْبِ السَّفينَةِ وَحَطَّمَهُ بِرَأسِهِ الضَّخْمِ ، وَأحْدَثَ بِهِ فَجْوَةً

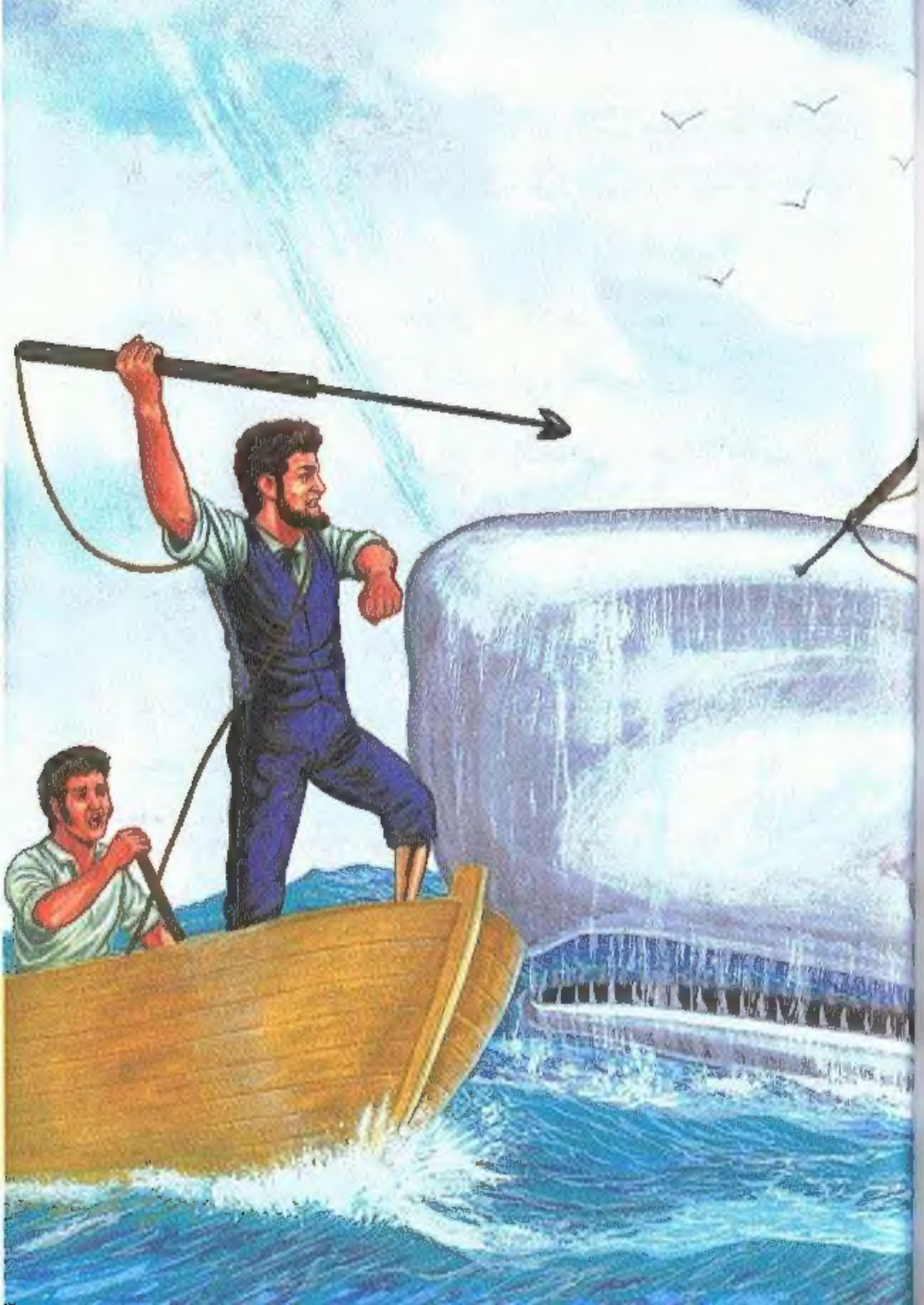

انْدَفَعَتِ المِياهُ بِشِدَّةٍ مِنْ خِلالِها إلى داخِلِ السَّفينَةِ .

صَرَخَ آخاب مِنْ قارِبِهِ وَقَدِ انْتابَتْهُ حالَةٌ مِنَ الجُنونِ : « السَّفينَةُ ! السَّفينَةُ ! أَصْبَحَتْ عَرَبَةَ المَوْتى الثّانِيَةَ لِلْبَحّارَةِ كُلِّهِمْ ! كَما تَنَبَّأَ فَيْضُ اللّهِ بِأَنَّها سَتَكونُ مَصْنوعَةً مِنْ أَخْشابِ أَمْريكا . وَلَكِنَّ هَذِهِ النُّعوشَ وَهَذِهِ العَرَباتِ سَتَغوصُ في البَحْرِ حَيْثُ تُدْفَنُ المَوْتى فيهِ ! وَلَنْ أَموتَ أَنا بِهَذِهِ الطَّريقَةِ ، بَلِ الحَبْلُ فَقَطْ سَيَكونُ سَبَبَ مَوْتي . إِذًا دَعْني أَرْبُطُ نَفْسي بِكَ أَيُّها الحوتُ الشَّيْطانِيُّ الخَبيثُ !»

وَأَطْلَقَ حَرْبَةً نَحْوَ الحوتِ ، وَلَكِنَّ الحَبْلَ المَرْبوطَ بِها تَعَثَّرَ بِالقارِبِ ، فَانْحَنى آخاب لِيُخَلِّصَهُ وَلَكِنَّهُ الْتَفَّ حَوْلَ عُنُقِهِ ، فَسَقَطَ في البَحْرِ قَبْلَ أَنْ يَكْتَشِفَ البَحّارانِ الباقِيانِ غَرَقَهُ .

وَعِنْدَما اسْتَدارا نَحْوَ السَّفينَةِ صاحا في دَهْشَةٍ وَلَوْعَةٍ : « السَّفينَةُ ! أَيْنَ السَّفينَةُ ! انْشَقَّ البَحْرُ وابْتَلَعَتْها المِياهُ !»

لَمْ يَعُدْ ظاهِرًا فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ إِلّا صاري السَّفينَةِ فَقَطْ ، وَالمِياهُ تَدورُ في دُوّاماتٍ حَوْلَ المَوْقِعِ ، في الوَقْتِ الَّذي تَغوصُ فيهِ السَّفينَةُ في أَعْماقِ البَحْرِ .

وَظَلَّ تاشْتيغو مُتَشَبِّثًا بِقِمَّةِ الصّاري ، وَكانَ آخِرَ مَنِ اخْتَفى في قَلْبِ دُوّاماتِ المِياهِ . وَلَمْ يَبْقَ حينَئِذٍ إِلّا طُيورُ البَحْرِ تُحَلِّقُ فَوْقَ

المكانِ ، وَهِيَ تَنْعَقُ بِأصْواتٍ ، كَأنَّها تَنْدُبُ سوءَ حَظِّ الضَّحايا الَّذينَ فَقَدوا أرْواحَهُمْ غَرَقًا ؛ بِسَبَبِ طَيْشِ الرُّبّانِ ، وَتَعَطُّشِهِ لِلانْتِقامِ مِنَ الحوتِ المُفْتَرِسِ .

ضاعَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَعادَ البَحْرُ تَتَلاطَمُ أمْواجُهُ وَتَنْسابُ مِياهُهُ ، كَما هِيَ عادَتُهُ طَوالَ كُلِّ السِّنينَ الَّتي انْقَضَتْ مِنْ قَبْلُ .

هَذِهِ نِهايَةُ قِصَّتي . أمَّا أنا – إسماعيل ، فَماذا حَدَثَ لي ؟ وَكَيْفَ نَجَوْتُ مِنْ هَذا البَحْرِ المُخيفِ ؟

. تَخَلَّصَ التَّابوتُ – الَّذي أحيلَ مِنْ قَبْلُ إلى طَوْقِ نَجاةٍ – مِنَ السَّفينَةِ بِيكُوْد وَهِيَ تَغوصُ في البَحْرِ ، وَلِحُسْنِ حَظّي ، وَقَبْلَ أنْ يَدِبَّ اليَأسُ في نَفْسي ، وَأنا ما زِلْتُ مَشْدوهًا مِنْ هَوْلِ المُفاجأةِ ، صَعِدَ التَّابوتُ إلى السَّطْحِ بِالقُرْبِ مِنَ المكانِ الَّذي أسْبَحُ فيهِ .

وَتَعَلَّقْتُ بِهِ طيلَةَ يَوْمٍ كامِلٍ وَطَوالَ لَيْلَةٍ بِأكْمَلِها ، تَدارَكَتْني فيهِما رَحْمَةُ اللّهِ وَحِمايَتُهُ ؛ فَلَمْ تُصادِفْني أسْماكُ القِرْشِ أوْ كِلابُ البَحْرِ . وَهُنا تَذَكَّرْتُ نُبوءَةَ فَيْضِ اللّهِ عَنْ تابوتِ المَوْتى الَّذي يَحْمِلُ رَجُلاً ما زالَ عَلى قَيْدِ الحَياةِ .

وَفي اليَوْمِ الثّاني ، رَأيْتُ شِراعًا لِسَفينَةٍ يَظْهَرُ في الأُفُقِ البَعيدِ . وَلِحُسْنِ الحَظِّ الَّذي لازَمَني ، رَآني بَحّارَتُها وَانْتَشَلوني مِنَ البَحْرِ ،

وَأنْقَذوني مِنْ مَصيرٍ مَحْتومٍ . وَتَبَيَّنْتُ أنَّها السَّفينَةُ راشيل الَّتي كانَتْ لا تَزالُ تَبْحَثُ عَنْ أبْنائِها المَفْقودينَ ، فَلَمْ تَعْثُرْ إلّا عَلى بَحّارٍ آخَرَ مَفْقودٍ .

المغامرات المثيرة

١- مغامرة في الأدغال
٢ - مغامرة في الفضاء
٣ - مغامرة أسيرين
٤ - مغامرة في الجزيرة الخضراء
٥ - مغامرة على الشاطئ
٦ - الجاسوس الطائر
٧ - لصوص الطريق
٨ - حمد الغواص الشجاع
٩ - اللصان الغبيان
١٠- مطاردة لصوص السيارات
١١- مغامرات السندباد البحري
١٢- لعبة خطرة
١٣- الحشرة الذهبية وقصص أخرى
١٤- اللؤلؤة السوداء
١٥- سر الجزيرة
١٦- مغامرة في النهر
١٧- شبح الحديقة وقصص أخرى
١٨- سر الدرجات التسع والثلاثين
١٩- الجاسوس و قصص أخرى
٢٠- مغامرات توم سوير
٢١- المختطف
٢٢- الكمبيوتر الرهيب
٢٣- الأميرة المتوحشة وقصتان أخريان
٢٤- موسيقى الليل وقصتان أخريان
٢٥- الناب الأبيض
٢٦- موبي دِك
٢٧- سر القط الفرعوني
٢٨- سجين زندا
٢٩- مغامرات هاكلبري فِن
٣٠- الفرسان الثلاثة

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم الكمبيوتر 01 C 198227